دار الوحدة

مع عبد الناصر



أمين هويدي

مَع عَبدالناصرْ

مَع عبد الناصرْ

أمين هويدي

دار الوحدة

الطبعة الاولى
١٩٨٠



اهـــداء

الى الذين يريدون أن يعرفوا الحقيقة التي أوشكت ان تهبط الى القاع ...

مقدمة

اصبح من المعتاد ان يحل تاريخ ثورة يوليو — تموز ١٩٥٢ الاصيلة ويذهب دون ان يحتفل به احد الا في حدود خطاب يلقى هنا او هناك مليء باللمزات الموجعة التي ربما تحمل من معاني التجريح والقدح اكثر مما تحمل من معاني التمجيد والمدح .

كما أصبح من المعتاد ايضا ان تحل ذكرى وفاة « جمال عبد الناصر » وسط محاولات متعمدة لتغليفها بستار كثيف من الصمت والتجاهل .

ولا يدخل هذا الذي يتم في نطاق « مناخ عام » من النكران وعدم الوفاء . اذ أننا نلاحظ أن احتفالات كبرى تقام بمناسبة احداث اقل شأنا من تاريخ الثورة العربية الاصيلة ، وأن احتفالات كبرى تقام ايضا بمناسبة تخليد ذكرى الكثيرين ممن فارقونا ولم يتركوا اثرا من تاريخنا كما تركه عبد الناصر .

واردت أن أخرج عن هذا التقليد فاحتفل بالذكرى العاشرة لوفاته بطريقتي الخاصة وهي اصدار كتاب بعنوان « مع عبد الناصر » اتحدث فيه عن زوايا معينة من حياته ومماته على حد سواء .

فتحدثت مثلا عن « عبد الناصر » كرئيس للوزراء في اخطر فترة مرت ببلادنا وهي الفترة التي اعقبت نكسة يونيو ــ حزيران ١٩٦٧ ... ما الذي كان يشغل باله ويستحوذ على اهتمامه اثناء مناقشات المجلس ؟ كيف كانت علاقته مع وزرائه ؟ ما هي الازمات القليلة التي كانت تقوم بين وقت واخر وكيف كان يعالجها ويواجهها ؟ ما هي علاقته بمجلس الامة وما رأيه في فصل السلطات ؟

واثناء مناقشتنا لهذه الموضوعات اعترضتنا بعض الاحداث التي صورت للرأي العام بطريقة بعيدة عن الحقيقة فرأينا انه قد حان وقت اجلائها وتوضيحها او على الاصح تصحيحها وازالة الغموض عنها .

ثم تحدثنا بعد ذلك عن « عبد الناصر واتخاذ القرار » ... لم نتعرض ابدا للقرارات المصيرية التي اصدرها عبد الناصر لاننا لو فعلنا ذلك لاحتاج ذلك منا مساحات واسعة لا يتسع لها المجال ، لان قراراته كانت كثيرة متعددة ، ولكننا اردنا ان نهيء المسرح لتقييم قراراته تلك لتجديد مفتاح شخصيته ، والظروف التي اصدر فيها قراراته . فصاحب هذا القرار دائما ليس حرا وهو يصدر قراره اذ هناك ارادات اخرى امامه وظروف ضاغطة تتفاعل معها رغباته واحلامه ، فلا يمكن الحكم على « قرار » الا اذا قيم في اطار

الظروف التي اتخذ فيها اذ ربما يكون قرار الامس غير صالح لمواجهة احداث اليوم او الغد فالظروف تتغيـر وتتبدل ولا بد أن يكون القرار متطابقا مع الظروف التي تواجهه والا اصبح كالسهم الطائش الذي ينطلق فـي الفضاء دون هدف او غاية .

ثم كان لا بد لنا أن نتحدث عن « استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان » وربما ساعدني علـى ذلك هو انني كنت بعد النكسة قريبا من دائرة اتخـاذ القرار مطلعا على الكثير مما كان يجري ويحدث . وكان من الممتع حقيقة ونحن نقوم بذلك أن ننظر الـى رد فعل « استراتيجية » من « الجانب الاخر من التل » . وقـد ظهر ذلك واضحا من مذكرات « هنري كيسنجر » التي اصدرها مؤخرا في كتابه « سنوات البيت الابيض » اذ ظهر واضحا من صفحاته رد فعل تحرك عبد الناصر بين « الخط الحرج الذي لا يجوز تجاوزه بواسطـة الدولتين الاعظم » و « خط الامر الواقع » الذي رفضه وقاومه . كذلك كان رد الفعل واضحا في صفحـات الكتاب عن الطريقة الماهرة التي كان يمزج بها عبـد الناصر الدبلوماسية مع المعركة .

ثم تحدثنا من موت عبد الناصر ... وكانت لنا وقفات امام بعض ما اثير وقيل لنـوضح الحقيقة ونجلوها . لان جهودا بذلت ــ ويا للاسف ــ لاثـارة

بذور الشك واطلاق سحب الدخان هنا وهناك لمنافع شخصية زائلة ...

والشيء الغريب اننا ونحن نتحدث عن ذلك نحس ان « عبد الناصر » ما زال حيا بيننا يسمع ويرى ما يجري على الساحة العربية الواسعة التي عاش من اجلها ومات تحت رايتها وعلى فمه ابتسامته الصامتة التي ربما تعبر عن الاسى وربما تعبر عن الرثاء ...!!!

القاهرة ــ مصر الجديدة .

أمين هويدي

الباب الاول

عبد الناصر رئيسا للوزراء

الفصل الاول : لماذا تولى عبد الناصر الرئاسنين في بعض الاوقات ؟
الفصل الثاني : ماذا كان يبحث فـــي مجلس الوزراء ؟
الفصل الثالث : كيف تعامل عبد الناصر مـــع وزرائه ؟
الفصل الرابع : أزمات داخل مجلس الوزراء .
الفصل الخامس : علاقة عبد الناصر بالمجلـس

الفصل الاول

لماذا تولى عبد الناصر الرئاستين في بعض الاوقـــات

تواريخ رئاسته للوزارة ـــ متـــى جمع بيـــــن الرئاستين ؟ ـــ اللجنة الاستشارية وما اثير حولهـــا ـــ المشاغل الضخمة ـــ صورة عامة عن مجلس الوزراء ـــ القرار والمتابعة .

عبـــد الناصر رئيسا للوزراء

قام عبد الناصر وزملاؤه بالثورة في ٢٣ يوليو ـــ تموز ـــ ١٩٥٢ .

ومات الرجل في ٢٨ سبتمبر ـــ ايلول ـــ ١٩٧٠ .

وبذلك تكون فترة حكمه استمرت ١٨ عامـــا ، شهرين ، ٥ أيام .

وكان عبد الناصر طوال تلك الفترة هو المحـــرك

الاول للاحداث سواء بطريق مباشر أو غير مباشر .

والاعتقاد السائد أن جمال عبد الناصر جمع بين رئاستي الجمهورية والوزارة طوال تلـــك الفترة او اغلبها على الاقل الا ان هذا الاعتقاد بعيد عن الواقع .

يظهر ذلك جليـــا باستعراضنا لاسماء رؤساء الوزارات في تلك الفترة :

صاحب المقام الرفيع علي ماهر باشا ١٩٥٢/٧/٢٤
اللواء اركان حرب محمد نجيب ١٩٥٢/٩/٧
بكباشي (مقدم) اركان حرب جمال عبد الناصر ٢٥/٢/١٩٥٤
اللواء أركان حرب محمد نجيب ١٩٥٤/٣/٨
بكباشي اركان حرب جمال عبد الناصر ١٩٥٤/٤/١٧
الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٥٦/٦/٢٥
الدكتور نور الدين طراف ١٩٥٨/١٠/٧ (رئيـــس المجلس التنفيذي للاقليم الجنوبي أيام الوحدة المصرية السورية) .
السيد كمال الدين حسين ١٩٦٠/٩/٢٠ (رئيس المجلس التنفيذي للاقليم الجنوبي ايـــام الوحدة المصريـــة السورية) .
الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٦١/١٠/١٨
السيد علي صبري ١٩٦٢/٩/٢٩
السيد زكريا محي الدين ١٩٦٥/١٠/١
السيد محمد صدقي سليمان ١٩٦٦/٩/١٠

الرئيس جمال عبد الناصر ١٩٦٧/٦/١٩ حتى ٩/٢٨/ ١٩٧٠ .

وبهذا يسجل التاريخ فترة تقرب من سبعة سنوات جمع فيها الرئيس الراحل بين الرئاستين : رئاسة الجمهورية ، ورئاسة الوزراء .

وهذا عكس ما يروجه البعض عن حسن نية احيانا او عن سوء قصد احيانا اخرى .

بل اذا تمعنا في الاوقات التي جمع فيها الرجل بين الرئاستين لوجدناها اوقات الاحداث الجسام .

● ففي الفترة من ١٩٥٤/٢/٢٥ حتى ٤/١٧/ ١٩٥٤ تولى الرجل رئاسة الوزارة اذ كانت البلاد تمر وقتئذ فيما عرف « بأزمة مارس او اذار » وهي ازمة هددت الثورة بالانحسار وانقسم فيها المجلس على نفسه فكان لا بد من تركيز السلطة في يد واحدة هي يد قائد الثورة لتجتاز البلاد تلك الفترة الصعبة من تاريخها .

● واستمر رئيسا للوزراء حتى عام ١٩٥٨ اذ مرت البلاد في ذلك الوقت بأحداث كبرى تم فيها توقيع اتفاقية الجلاء ، وكسر احتكار السلاح بعقد الصفقة الاولى للتسليح مع تشيكوسلوفاكيا ، ثم تأميم قناة السويس ، ثم انتهت بالعدوان الثلاثي على مصر وما ترتب عن ذلك من احداث وتطورات .

● ثم عاد فتولى رئاسة الوزارة مرة اخرى بعد انفصام الوحدة مع سوريا اذ اصبح التهديد قاب قوسين او ادنى من القاهرة ذاتها بعد ان نجحت الرجعية في فصل جناحي الجمهورية العربية المتحدة وتحطيم الوحدة حلم العروبة واملها المنشود .

● ثم عاد ليحتفظ لنفسه برئاسة الوزارة مرة اخرى عقب النكسة عام ١٩٦٧ واستمر يجمع بين الرئاستين الى أن مات في ١٩٧٠/٩/٢٨ .

ويتضح من الحقائق السابقة ان عبد الناصر حينما احتفظ بالرئاستين في تلك الفترة القصيرة من حكمه لم يكن ساعيا الى السلطان بقدر ما كان متصدرا لتحمل المسؤولية التي فرضتها الظروف عليه فما كان يتردد في مواجهة الرياح العاصفة وما كان يتأخر عن الجمع بين أعباء المنصبين تحقيقا للمصلحة العليا للبلاد وسط الانواء العاصفة التي كان عليه أن يقود فيها دفة الحكم رافضا الدخول ضمن دوائر النفوذ مصرا على الا تستمر مصر ذيلا كما عاشت طوال عمرها رافعا لمبادىء جديدة عاش من أجلها ومات في سبيلها ...

ووقت رئاسته للوزارة كان حريصا على ان يشكل « لجنة استشارية » الى جواره واجبها دراسة الموضوعات التي يأمر « الرئيس » بدراستها او الموضوعات الهامة التي تفرض نفسها ثم رفع ما تراه

من توصيات أو بدائل اليه . وكان تصرف عبد الناصر ازاء ما يرفع له من أقتراحات هو اما الموافقة الصريحة بكلمة « اوافق » او الاعتراض الصريح بكلمة « لا اوافق» أو طلب « مزيد من الدراسة » او تنزل الورقة بيضاء دون تأشيرات أو تحجز الاوراق عنده الى ما شاء الله. وكانت سكرتارية الرئيس للمعلومات تبلغ الجهات المختلفة تأشيرات « الرئيس » .

وفي اواخر الخمسينات كان يرأس اللجنة الاستشارية السيد علي صبري وزير شؤون رئاسة الجمهورية وكان اعضاؤها هم : محمد عبد القادر حاتم مدير مصلحة الاستعلامات في ذلك الوقت والسيدين حسين ذو الفقار صبري ومراد غالب المستشارين بالرئاسة وامين هويدي نائب رئيس المخابرات العامة.

وبعد النكسة كانت اللجنة مكونة من شعراوي جمعة وزير الداخلية وامين هويدي — وزير الحربية ثم رئيس المخابرات العامة ثم وزير الدولة — وسامي شرف سكرتير الرئيس للمعلومات وكان ينضم اليها احيانا محمد حسنين هيكل رئيس تحرير الاهرام ووزير الاعلام او بعض الوزراء الاخرين اذا استدعت الظروف ذلك .

واثناء سفر الرئيس الى الخارج كان السيد انور السادات نائب الرئيس يرأس اللجنة ليبت فيما يرفع له

من اقتراحات او يؤجل ما يراه لحين عودة الرئيس من الخارج .

وقد قيل كلام كثير عن هذه اللجنة الاخيرة وكتب البعض عنها كلاما تنقصه الدقة وينحو الى التضليل والتشكيك . بل كانت هذه اللجنة محل اهتمام المحققين اثناء التحقيق فيما أسموه قضية « ١٥ مايو — ايار — ١٩٧١ » والشيء الغريب حقيقة أن بعض المتقولين كان من بين من حضروا اجتماعات هذه اللجنة ... قيل عنها انها كانت توجه الحكم من مصر وقيل عنها انها كانت تفرض آراءها على عبد الناصر!!!

والكل يعلم ان عبد الناصر لم يخضع في حياته لفرد من الافراد او لجنة من اللجان والا كان في هذا — ان صدق — نفي لما قاله نفس هؤلاء عن ديكتاتورية نسبوها الى الرجل .

ولكن كيف كان يعمل مجلس الوزراء برئاسة عبد الناصر ؟ وفي اجابتي عن هذا السؤال سأقصر حديثي عن الفترة التي عاصرتها كوزير في مجلس الوزراء الذي رأسه عبد الناصر وبالتحديد في الفترة من ١٩/ ١٩٦٧/٦ حتى وفاته في ١٩٧٠/٩/٢٨ .

كان مجلس الوزراء يعقد جلسة اسبوعية تستغرق وقتا لا يزيد في اغلب الاحيان عن ثلاث ساعات . وما أظن ان عبد الناصر تخلف عن واحدة من تلك الجلسات او أجلها الا تحت مشاغل ضاغطة او

توعك شديد ألم بصحته . بل أذكر جيدا ـ ولعل الزملاء جميعا يذكرون ـ انه كان يحضر احيانا وعلامات الالم الشديد واضحة على وجهه من التهابات المفاصل التي بدأ يشعر بها وكذلك العرق الغزير وهو يتصبب من جبهته . وبالرغم من ذلك فانه كان يصر على ان تستمر الجلسة حتى نهايتها .

وعلينا أن نقيم ذلك في ضوء الاعتبارات الاتية :

● المشاغل الكثيرة التي كانت تعتصره في ذلك الوقت نتيجة لظروف النكسة واحتلال الارض .

● اهتمامه الزائد بشؤون القوات المسلحة وحضوره لكثير من المؤتمرات التي تعالج مشاكل اعادة بنائها أو المناورات والتدريبات المختلفة التي كان يحرص على حضورها .

● حضوره الاجتماعات المنتظمة للمؤسسات القائمة : اللجنة التنفيذية العليا واللجنة المركزية والمؤتمرات القومية للاتحاد الاشتراكي ، والتي كان يحرص اشد الحرص على انعقادها في مواعيدها المقررة .

● المؤتمرات الشعبية في المناسبات المختلفة المتعددة .

● مقابلاته العديدة من رجالات مصر والبلاد العربية وللزائرين من مختلف العالم .

● سيل المذكرات والتقارير التي كان عليه ان

يطلع عليها ويتخذ فيها قرارات مصيرية .

● الاضطراب الصحي الذي تفاقم بعد النكسة والذي انتهى بوفاته .

ولذلك لم يكن غريبا أن عبد الناصر لم تكن لـــه حياة اجتماعية خاصة . كان يقضي معظـــم وقته بين طابقي منزله البسيط في منشية البكري ... الطابق الاعلى للنوم والطابق الاسفل لاعماله المكتبية ولاستقبال زائريه .

وكان من عادة « الريس » ان يحضر متأخرا عن الموعد المحدد لانعقاد المجلس ربما بساعة كاملة . وكان هدفه من هذا التأخير هو أن يتيـــــح للوزراء فرصة ليجتمعوا مع بعضهم البعض ليتناقشوا فيما يعن لهم من امور اذ ان مسؤولياتهم الكثيرة ما كانت تتيح لهم مثـــل هذه الفرصة للقاء ، ولا شك أن امورا كثيرة كانـــت تعالج في تلك الفترة التي كان على الوزراء ان يمضوها في انتظار الرئيس .

وكان هناك ثلاث قاعات مجهزة لانعقاد مجلـــس الوزراء : القاعة الكبرى بمبنى الحكومة المركزية بمصر الجديدة والذي يجري تحويله الان الى فندق سياحي كما كان من قبل ، قاعة اخرى في مبنى رئاسة مجلس الوزراء أمام مجلس الشعب ، والقاعة الثالثة فـــي قصر القبة . وفي هذه القاعة الاخيرة كان يعقد الرئيس

عبد الناصر اجتماعات مجلس وزرائه .

وكان هرولة رجال الصحافة والتلفزيون والاذاعة بمثابة اعلان عن وصول الرئيس فيأخذ الوزراء اماكنهم في انتظار دخوله الى القاعة في خطاه السريعة الواسعة ووراءه الاخ محمد أحمد سكرتيره الخاص في ذلك الوقت حاملا حقيبة الاوراق التي كانت تكبر وتصغر على حسب ما تحتويه .

واذا كان الرئيس في حالة نفسية طيبة كان يدخل القاعة وابتسامة متزنة على فمه ... ويحيي بعض الزملاء بكلمة هنا وكلمة هناك ... ابتسامة لهذا او لذاك ... ونادرا ما كان يحيي احدا بالمصافحة باليد الا اذا كان من باب المجاملة لسبب من الاسباب او تعبيرا عن تقديره الصامت لعمل قام به احد الوزراء .

اما اذا كان « الريس » في حالة نفسية متعبة فانه كان يدخل القاعة في خطوات سريعة وقد اكتسى وجهه بعلامات الجد ويقصد مقعده دون ان ينظر الى ما حوله .

وبعد انتهاء رجال الصحافة والتلفزيون من التقاط الصور التقليدية ينصرف كل الى حال سبيله وربما انتظر البعض منهم في القاعة المخصصة لهم في انتظار البيان الرسمي عن اجتماع المجلس الذي كان يمليه عليهم اما وزير الارشاد او وزير الدولة لشؤون مجلس

الوزراء بعد انتهاء الجلسة .

واذا انصرف رجال الصحافة يغلق باب القاعة . وتبدأ الجلسة .

واثناء انعقاد الجلسة كان الوزراء يطلبون ما يشاءون من مشروبات ساخنة او باردة اما « الريس » فكان دائما يكتفي بكوب من الليمون المثلج يوضع امامه صيفا او شتاء واحيانا كان يتناول فنجانا « مضبوطا » من القهوة .

وكان من عادة « الرئيس » ان يدخن كثيرا اثناء انعقاد الجلسة ... وكان يخيل لي وانا اراقبه اثناء التدخين انه يكاد « يقضم » السيجارة التي في يده ... يأخذ منها « نفسا » عميقا بين الحين والحين . ولكنه نزولا على أمر الاطباء — بعد أن اقتضت حالته الصحية ذلك — اقلع عن التدخين الى غير رجعة . واذكر أن الوزراء « المدخنين » اتفقوا وقتئذ على عدم التدخين إثناء انعقاد الجلسة مجاملة « للريس » ومراعاة لشعوره الا انه احس بذلك من فوره والح في ان يمارس الجميع هواياتهم في التدخين على الاقل حتى يضع قوة ارادته تحت الاختبار ...!!

وكان يتم تسجيل كل ما يدور في المجلس من مناقشات وقرارات بأجهزة تسجيل بواسطة سكرتارية الرئيس للمعلومات التي كانت تحتفظ بأشرطة التسجيل لديها كسجلات تاريخية للمجلس . وفي الوقت نفسه

كان سكرتير عام الحكومة يحضر جلسات المجلس ويدون مختصرا مفيدا لما يدور كما يسجل القرارات بمنتهى الدقة ليتم توزيعها بعد ذلك على الوزارات المختلفة حتى تعمل على تنفيذها .

ولم يكن صدور القرار هو نهاية المطاف بل كانت مرحلة المتابعة تبدأ بعد ذلك . وكان وزير الدولة يقوم بهذا الواجب ويرفع تقارير دورية بذلك الى «الريس» على شكل جداول يوضح فيها القرار وتاريخ صدوره والخطوات التي تمت لتنفيذه او الموانع التي تحول دون تنفيذه . وكان الرئيس يطلع على هذه التقارير ويناقش الوزراء فيها للتغلب على الصعوبات التي تحول دون سرعة التنفيذ .

واحيانا كانت ترفع تقارير متابعة يومية عن بعض الموضوعات الهامة كانتشار وباء « الكوليرا » مثلا او عن تطورات موقف سياسي معين له تأثير مباشر على الجمهورية .

اما عن الخطة الانتاجية للدولة فكان وزير التخطيط يتقدم بتقرير متابعة كل ثلاثة شهور عن مدى سير العمل في مشروعات الخطة وما تم تحقيقه لزيادة الانتاج ومستوى دخل الافراد واي تعديلات يتطلبها الموقف . وكان المجلس حينئذ يخصص اكثر من جلسة لمناقشة هذا التقرير .

وفي مجال المتابعة ايضا كان وزير الخزانة يقوم بعرض الشؤون المتعلقة بالميزانية بين وقت واخر لادخال التعديلات المناسبة في اوجه الانفاق لمواجهة متطلبات عاجلة طارئة للقوات المسلحة مثلا تقتضي اجراء تعديلات مختلفة في ابواب الميزانية .

اذن كانت متابعة تنفيذ القرارات تنال عناية كاملة من مجلس الوزراء بل كان يخصص لها جلسات خاصة كما سبق التوضيح . وخزائن مجلس الوزراء حافلة بتقارير المتابعة تلك وتثبت في الوقت نفسه ان عملا كبيرا كان يتم ... وأن قرارات خطيرة كانت تتخذ ... وأن مناقشات غنية كانت تجرى .

وكان كثير من الموضوعات التي تناقش في مجلس الوزراء يتم عرضها في اللجنة التنفيذية العليا ، او في اللجنة المركزية ، او في المؤتمرات القومية . فمثلا الموضوعات المتعلقة بميزانية الدولة ، أو الخطة الانتاجية ، أو الموضوعات التي تتعلق ببعض الشؤون الداخلية كاضطرابات كانت تحدث احيانا بين صفوف الطلبة أو العمال كل ذلك كان يناقش في تلك الجهات في وقت واحد وربما تم عرض ذلك ايضا في الصحافة واجهزة الاعلام والندوات .

هذا كان يحدث وبصفة مستمرة . ربما نسيه البعض تحت وطأة الاحداث ، وربما تناساه البعض

تمشيا ومسايرة للاحداث .

ولكنه كان يتم رغما عن النسيان أو التناسي .

ولكن ماذا كان يدور في مجلس الوزراء ؟ هــذا سيكون حديثنا في الفصل التالي باذن الله ...

الفصل الثاني

ماذا كان يبحث في مجلس الوزراء ؟

الموضوعات العامة والموضوعات المدرجة في جدول الاعمال — الرئيس وشنطة الخبز — الطلبات الجماهيرية فوق كل اعتبار — الوزير الحزبي والوزير السياسي — الانتقال الى الجماهير وليس العكس — الجماهير ليست وحدة عسكرية — واسقط في يد الوزير — الكلمة للجميع — اللجان الوزارية — مبادىء تحدد وحدة الفكر داخل مجلس الوزراء .

تواعدنا في الفصل السابق على الحديث عما كان يدور في مجلس الوزراء الذي كان يراسه جمال عبد الناصر . . . وما علينا الان الا ان ندخل مباشرة في الموضوع .

كانت جلسة مجلس الوزراء تنقسم دائما الى فترتين :

الفترة الاولى وتبحث فيها الموضوعات العامة ، والفترة الثانية وتبحث فيها الموضوعات المدرجة في جدول الاعمال .

واحيانا كثيرة كانت مناقشة الموضوعات العامة تستغرق الجلسة بطولها .

والموضوعات العامة كانت موضوعات تتعلق بالمصالح المباشرة للجماهير يرى الرئيس او احد الوزراء اثارتها دون ترتيب سابق ... وكان الرئيس عادة يسجل النقاط التي يريد اثارتها في « نوتة » او مفكرة من الحجم المتوسط حتى لا ينسى . ومن تعامل مع « الريس » يعرف تماما انه لا ينسى فقد كانت لـه ذاكرة حديدية تحفر فيها الموضوعات فلا تضيع ... وبالرغم من ذلك فانه كان يحتفظ دائما بهذه « النوتة » ليرجع اليها وقت أن يشاء .

وقد كانت الحالة التموينية تنال اهتمامه بشكل واضح ... رغيف الخبز ، الحلاوة الطحينية ، الزيت ، السكر ، الشاي ، الصابون ، اللحوم ، الجبن .... وفوق كل ذلك الاحوال السائدة في الجمعيات التعاونية . وكان لهذا الاهتمام المستمر تأثيره الواضح في الجماهير اذ انه رغما عن ظروف النكسة ورغما عن ارتفاع الاسعار العالمية وقلة المتيسر من العملة الحرة للاستيراد فانه لم يحدث في ذلك الوقت اي عجز في المواد التموينية الرئيسية بل امكن السيطرة تماما على الاسعار في السوق المحلية فاحترمت التسعيرة الجبرية وقلت حوادث التلاعب في الاسواق بعد أن سحبت

تراخيص بعض التجار « المتلاعبين » واقفلت بعض الحوانيت وقدم الاخرون للمحاكم لمواجهة الاحكام الرادعة .

ولقد كان توفر المواد التموينية بهذا الشكل الملحوظ موضع نقد في كثير من اللقاءات السياسية اذ كان البعض يرى ان الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حرب الاستنزاف تحتاج الى مزيد من التقشف بالاستغناء عن توفير بعض السلع . ونوقشت هذه الاتجاهات اكثر من مرة في مجلس الوزراء اذ كان بعض الزملاء يرون صحة هذه الاتجاهات التي كانت تلاقي تجاوبا من قطاع كبير من شعبنا الطيب الحمول الصبور الا ان « الريس » كان يقول « تقشف ايه يا جماعة ؟ هيه الناس لاقية الضروريات علشان ننادي بالتقشف !! » .

وفي احدى الجلسات دخل الرئيس قاعة المجلس ومعه « شنطة » متوسطة الحجم . وحينما بدأت الجلسة اخذ يفرغ محتوياتها وفوجيء الوزراء بأن المحتويات كانت عددا من « ارغفة » الخبز البلدي مأخوذة من بعض المخابز في عدد من احياء القاهرة ... شبرا ، روض الفرج ، الوايلي ، سيدنا الحسين ، الدرب الاحمر ، مصر القديمة ، مصر الجديدة ... واخذ يلوح بها لوزير التموين معربا عن عدم رضائه عن حالة « الرغيف » سواء من ناحية الحجم او اللون او

الشكل وكان يقول « مين يقدر منكم ياكل مثل هـــــذا الخبز ؟ هل هذا معقول ؟ » وطالب غاضبا بعلاج سريع للموقف وانتقال اجهزة الوزارة الى المخابز حتى يتـــم اصلاح « الرغيف » . وقد كان .

وكان اكثر ما يغضبه رؤية طابور امام احـــدى الجمعيات التعاونية ـــ على ندرة ما كان يحدث في ذلك الوقت ـــ وهنا يثير الموضوع في اول اجتماع للمجلس في صراحة وجدية مطالبا بازالة الاسباب التي تدعو الى ذلك . ولعل الجميع ما زالوا يذكرون ندرة مثل هذه الطوابير امام الجمعيات المختلفة في ذلك الوقت .

في فترة من الفترات شحت « الحلاوة الطحينية » في الاسواق . وكان هذا الموضوع يؤرقه « فالراجل الفقير حياكل ايه ؟ رغيف وقطعة حلاوة ... فـــاذا عجز الحكم حتى عن تقديم ذلك فعلينا جميعـــــا أن نتخلى « . واستمر يضغط ولم يهدأ له بال حتى اصبحت « الحلاوة الطحينية » في متناول الجميع .

وكان الرجل شديد الحساسية بالنسبة لعجـــز يحدث في احدى المنتجات المحلية اذ كان من النادر في ذلك الوقت استيراد احتياجات الشعب من الخـــارج فكانت الاسواق لا تعـــرف « البضائع المستوردة » الا عن طريق « التهريب » واصبح الانتاج المحلي يكفـــي ويزيد من طاقة الاستهلاك . واثبتت الظروف الصعبة

التي كانت تمر بها البلاد وقت الحرب حكمة السياسة التي كانت متبعة بخصوص القطاع العام والتحكم في الاستيراد وعلى ذلك فلم يكن الرجل ليقبل اي عذر او مبرر لعدم وجود سلعة من السلع في المحلات العامة .

يخصص عددا من جلساته للاستعداد للمناسبة . فتبحث المواضيع المتعلقة بالكتب المدرسية وطاقة الطباعة في الدولة لتعبئتها حتى يكون الكتاب في يد الطالب منذ اليوم الاول للدراسة وكذلك الحال مع الكراسات والاقلام وغيرها من الادوات المدرسية ... ثم توفير الملابس للطلبة من بلوفرات وجوارب وبنطلونات وبيجامات واحذية واقمشة المرايل ... وكان يغضب حين يرى المسؤولين في المدارس المختلفة يغيرون لبس الطلبة كل عام « ففي هذا عبىء اضافي على ميزانية الاسرة وميزانية الدولة علاوة على ان هذه السياسة فيها عدم تقدير للمسؤولية وعدم وعي وتقدير للظروف السائدة » .. وفي نفس الوقت لم يكن يتصور ان سعر « البلوفر » يصل الى جنيهين مثلا وكم سمعناه يقول « يعني لو واحد عنده خمسة اولاد يحتاج الى عشرة او عشرين جنيها لبند البلوفرات فقط عند افتتاح المدارس ويبقى عليه أن يدبر نقودا للاحذية والملابس الداخلية » . ثم يهدد وزير الصناعة في ذلك الوقت « برفع الحماية الجمركية عن الانتاج المحلي اذا

لم تبذل الجهود الصادقة لخفض أسعار التكلفة والا والله نستورد الملابس من الصين الشعبية » . ولم ينفذ « الريس » تهديده لان الامور عولجت في وقت معقول .

أما المواضيع المتعلقة « بالصحة العامة » فكانت تثار بين وقت واخر خاصة عند انتشار « بعض الامراض الصيفية » كالكوليرا مثلا ... كانت التقارير اليومية ترفع له موضحة عدد الاصابات أو الوفيات ومقدار توفر الامصال في المستشفيات او المخازن في كل انحاء الجمهورية وحوادث الاهمال التي قد تحدث هنا وهناك . ولذلك فان السيطرة على مثل هذه الامراض الطارئة كانت تتم في اقصر وقت . ويكفي للدلالة على ذلك تقارير الهيئات الدولية ثم اعتماد اغلب البلاد العربية وغيرها من البلاد الافريقية والاسيوية على انتاجنا المحلي من الامصال التي كان الرئيس يأمر بارسالها بالطائرات فور طلبها .

ويحضرني بهذه المناسبة قصة لها دلالتها . فقد وصل الى علم الرئيس أن اهمالا ما حدث في بعض المستشفيات وقت حدوث بعض اصابات الكوليرا ووجه اللوم والعتاب الى الدكتور عبده سلام وزير الصحة في ذلك الوقت . الا أن « عبده سلام » وفي ثقة تامة لا تخلو من الانفعال الواضح اخذ يوضح الموقف بأرقام واحصائيات لا تقبل الشك وكان الرجل

يتحدث في صدق وعلامات التعب بادية عليه من قلة ساعات النوم التي كان يفوز بها أو يختلسها . وما لبثت علامات الرضا أن ظهرت على وجه « الريس » وقال « طيب يا سيدي احنا متأسفين ومقدرين جهدك وجهد رجالك تمام التقدير » . وضحك ضحكته المشهورة . واخذ « عبده سلام » يتخلى عن انفعاله ويعود بسرعة الى طبيعته الهادئة بعد أن اطمأن أن الصورة الحقيقية اصبحت واضحة أمام عبد الناصر .

وكان « الريس » يحث الوزراء دائما على ترك مكاتبهم للاتصال بالجماهير للوقوف على مطالبها واحتياجاتها واتجاهاتها فالوزير مسؤول سياسي قبل اي اعتبار اخر مسؤوليته ليست محصورة في نطاق وزارته فحسب بل تمتد الى المسؤولية الوزارية الشاملة بصفته عضوا في الحكومة التي يمثل سياستها ككل . وغفر الله لبعض الكتاب الذين تحدثوا عن هذه النقطة ووصفوا وزراء عبد الناصر بأوصاف غير لائقة وخلطوا بين « الوزير الحزبي » و « الوزير السياسي » فليس بالضرورة « للوزير الحزبي » أن يكون « وزيرا سياسيا » كما أن « الوزير السياسي » لا يتحتم أن يكون « وزيرا حزبيا » وعلى اي حال فهذا خارج عن موضوعنا الذي نحن بصدده وربما يكون لنا عودة له ان كانت الظروف ملائمة .

كان من الطبيعي والحالة هذه انتقال الوزراء الى

المحافظات لعقد الاجتماعات السياسية والوقوف على مطالب الجماهير لحل مشاكلها . وكان الوزراء يعرضون ما يلمسونه داخل المجلس الا ان الزملاء تقدموا بالشكوى لعبد الناصر في احدى الجلسات بانهم كثيرا ما يجدون أنفسهم في حرج بالغ لعدم قدرتهم على حل بعض المشاكل البسيطة لعدم توفر الاعتمادات واذكر ان الرئيس قال « بقى ده معقول ؟ وزير قد الدنيا نازل المحافظة او المركز ولا يمكنه البت في اصلاح جامع او عمل قنطرة ؟ لازم وزير الخزانة يخصص اعتمادا لمثل هذه الامور » . وفعلا وفي نفس الجلسة خصص الدكتور عبد العزيز حجازي وزير الخزانة مليوني جنيه تحت تصرف الوزراء للصرف منها لمواجهة المطالب الجماهيرية العاجلة .

وقد أثمرت هذه الطريقة واصبحت اللقاءات الجماهيرية مثمرة وبناءة وكان ذلك تطورا ثوريا في مفاهيم الحكم اذ أصبح من المعتاد انتقال الوزراء الى الجماهير واجراء الحوار معهم ولم يكن ذلك مألوفا من قبل فاذا اضفنا الى ذلك تنفيذ « نظام الحكم المحلي » والتنازل له تدريجيا عن بعض السلطات المركزية وانتشار وحدات الاتحاد الاشتراكي رغما عن بعض سلبياته لعرفنا أن الالتصاق الحقيقي بين الجماهير والسلطة كان يسير في الاتجاه الصحيح .

وكان الحماس يغلب بعض الوزراء وهم يعرضون

آراءهم اثناء المناقشات فيقولون مثلا « يجب تحسين وسائل المواصلات ... او يجب محـو الامية ... او يجب العودة الى الشريعة » وكان ذلك يثير عبد الناصر ويضايقه فيرد قائلا « كل واحد عمال يقول يجب ... يجب ... يجب ، طيب ما انتم في المسؤولية ... لماذا لم تخططوا لذلك ؟ لماذا لم تنفذوه ؟ قبل ما نقول لازم ويجب علينا ان نفكر في كيف يتم هذا ؟ لاننا عارفين انه يجب ولكن يمكن مش عارفين كيف يتم ذلك ؟ ويجب ان تتذكروا شيئا مهما للغاية ... الجماهير ليست وحدة عسكرية يمكن لو الواحد في الوحدة العسكرية أمـر الجنود بالاتجاه الى اليمين مثلا فالكل يطيع الامر لكن لو اي فرد وقف في ميدان الاوبرا واحتشدت الجماهير هناك وامرهم بالاتجاه الى اليمين قد لا يطيعه احد أو يمكن واحد يتجه لليمين وعشرة لليســـار وعشرين للخلف » .

حدث في احدى الجلسات ان مجلس الوزراء كان منهمكا في بحث « الخطة السنوية للدولة » وكيفيـة تدبير الاعباء المالية من العملة الصعبة او العملة المحلية واذا بالزميل عبد العزيز كامل وزير الاوقاف يلح فـي طلب الكلمة . وكان من عادة « عبد العزيز » أن يفاجىء الجميع باثارة موضوع اخر بعيدا كل البعد عن الموضوع الذي يناقش كما كان معروفا عنه أنه كان دائما ما يعبر

عن آرائه بجمل مطاطة لا تلزمه براي معين . اعطاه الرئيس الكلمة بعد أن لمس اصراره والحاحه واذا به يردد نفس ما يردده احيانا على شاشات التلفزيون او في الصحافة عن « ضرورة العودة للدين ونشر الدعوة بين الشباب لتوعيتهم بأمور دينهم وتاريخ السلف الصالح ...... » ورد عبد الناصر قائلا « انا موافق يا عبد العزيز . ولكن كيف ؟ طيب يا اخي انت وزير الاوقاف ولديك ميزانيتك الغنية الضخمة وتحت يدك الجوامع والخطباء وكافة اجهزة الاعلام ، ما الذي يمنعك من تنفيذ ما تقول ؟ هل تقدمت بخطتك لتنفيذ ذلك واعترضنا عليها ؟ هناك فارق كبير بين الحديث عن شيء والعمل على تنفيذه » .

واسقط في يد « عبد العزيز » وتنبه الى الفارق الكبير بين مجرد « الحكي » وبين « المسؤولية » الوزارية ... بين « مجرد الكلام » وبين « المقدرة على التنفيذ » .

وزاد موقفه صعوبة حينما طالبه الرئيس بخطة كاملة تناقش داخل مجلس الوزراء خلال اسبوعين التصديق عليها .

وفات « عبد العزيز » ان الريس دون الموعد في « النوتة » الشهيرة .

وفي الوقت المحدد سأل الرئيس عن « الخطة الدينية » التي كثيرا ما تحدث عنها « عبد العزيز كامل »

واعتذر الرجل عن عدم اتمامها . ومن المؤكد انها لم تقدم للمجلس حتى وفاة عبد الناصر رحمه الله ولا أظن انه اتمها حتى الان !! فالكلام شيء والتنفيذ شيء اخر . والقاء محاضرته هنا أو هناك شيء والقدرة على الخلق والبناء شيء اخر !!

وكان المجلس دائما ما يستعرض كلا من الموقفين الخارجي والعسكري ... فيلقي كل من وزيري الخارجية والحربية بيانا بالموقف وكان الكثيرون يشتركون بعد ذلك في الحوار والمناقشة . وفي حالة غياب محمود رياض وزير الخارجية في الخارج كان يستدعى نائبه لحضور مجلس الوزراء لاطلاعه على ما كان يجري . الا ان الموضوعات العسكرية الحساسة كخطط العمليات المقبلة او المشاكل التفصيلية للتسليح او التصنيع الحربي كانت تستعرض بشكل سريع . وفي اعتقادي ان هذا امر سليم . ولا اقول ذلك لانني كنت وزيرا للحربية لفترة قصيرة بعد النكسة ولكني اقوله لانه امر معمول به في كافة الدول حيث تناقش مثل هذه الموضوعات في مجالس متخصصة كمجالس الحرب او مجالس الدفاع او في وزارة الحرب التي تشكل من عدد قليل من اعضاء مجلس الوزراء . حدث هذا ويحدث في بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة واسرائيل . ولذلك اسبابه ودواعيه فما الحيلة اذا كان للحوائط آذان كما يقولون ؟!!

ولا اريد أن استرسل اكثــــر من ذلك فـــي « الموضوعات العامة » التي كانت تناقش في مجلـــس الوزراء في ذلك الوقت فهناك عشرات من الموضوعات التي يمكن أن تذكر واكتفي بما سبق على سبيل المثال .

ولكن قبل أن ننتقل الى موضوع اخر لا بد مـــن وقفة .

فمن الغريب حقا أن كثيرا من اعضاء مجلـــــس وزراء عبد الناصر تقاعسوا عن توضيح الاعمال الكبيرة التي اشتركوا فيها وتخاذلوا أمام الحملات التي قام بها البعض ليشوهوا كل ما حدث . وهـــــذا التقاعس والتخاذل أمر لا يجوز .

ولكن الاكثر غرابة انني قرأت لبعض الزمـــلاء السابقين ــ وأحمد الله انهم قلة ــ نقدا عن اسلوب المناقشات داخل المجلس ... وتناهى الى سمعي في نفس الوقت ما يردده البعض منهم عن مواقف « صلبة » و « عنتريات » لتلقين عبد الناصر درسا . وهذا امـــر مؤسف .

لانني أقرر هنا أن الفرصة كانت تتاح للجميـــع للمناقشة وللتعبير عن الراي . فلا يمكن لاحد أن ينكر أن باب المناقشة كان مفتوحا للجميع على مصراعيـــه فان تردد البعض في الدخول فيــــه لاسباب تتعلق بشخصه فالتبعة تقع عليه . لانني اتساءل : من مـــن الزملاء طلب الكلمة ولم تعط له ؟ أو اراد ان يتحدث في

موضوع وحرم من ذلك ؟ أو فتح حوارا ومنع من الاستمرار فيه ؟

واقدام نفر قليل ممن عمل تحت رئاسة عبدالناصر لسنوات أو شهور على التهجم عليه بعد ان مات يثير تساؤلا جادا عن سبب استمرارهم في العمل تحت رئاسة لا يرتاحون لاسلوبها ؟!! واقف عند حدود التساؤل لانني لا أريد أن اجازف باقحام الوفاء في الموضوع لانه شيء — كما يبدو — انتهى وضاع .

ولننتقل الان للحديث عن الموضوعات المدرجة في جدول اعمال مجلس الوزراء او « الرول » لنتحدث عن طبيعتها وطريقة عرضها على المجلس .

كان هناك العديد من اللجان الوزارية واجبها بحث كافة الموضوعات التي ستعرض على مجلس الوزراء بحثا مستفيضا قبل اتمام عرضها وكان يصدر قرار من رئيس الوزراء عقب اي تشكيل وزاري يحدد هذه اللجان واعضاءها وواجباتها ويراس اللجنة اقدم الوزراء وكان يضم الى عضويتها رؤساء بعض الاجهزة التي تتعلق اعمالها باختصاصات هذه اللجان وكان يمكن للجنة استدعاء من تراه من المتخصصين لبحث موضوع معين للاستنارة بارائهم . وكانت سكرتارية الحكومة تتولى اعمال السكرتارية الخاصة بهذه اللجان . وكانت كل لجنة تعقد اجتماعا او اكثر كل اسبوع في القاعة المخصصة لذلك بمبنى مجلس الوزراء .

وكان عدد اللجان ستة : لجنة الخطة التي تتولى بحث كافة الموضوعات المتعلقة بالخطة والميزانية ، اللجنة الاقتصادية وكانت تبحث كافة الموضوعات الاقتصادية ، لجنة اعداد الدولة للحرب ، لجنة التنظيم والادارة ومسؤوليتها بحث قوانين العاملين في الحكومة والقطاع العام ، لجنة الخدمات لدراسة الموضوعات الخاصة بالتعليم والثقافة والصحة ، اللجنة التشريعية لدراسة القوانين والتشريعات .

وكان يعرض على هذه اللجان الموضوعات التي تحول اليها من مجلس الوزراء او من الوزارات المختصة أو من الاجهزة الرئاسية وتعد لها دراسات متشعبة يتم دراستها داخل اللجان .

وحينما يصبح الموضوع جاهزا للعرض على مجلس الوزراء يوافق وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء على درجه في جدول اعمال المجلس ومن ثم يتم طباعته وتوزيعه على اعضاء مجلس الوزراء قبل عقد الجلسة المخصصة لدراسته بوقت كاف حتى يتسنى للوزراء دراسته وابداء رأيهم فيه . وكان هذا النظام يحقق دراسة الموضوعات قبل البت فيها في مجلس الوزراء دراسة وافية لذا لم تكن مناقشة الموضوعات تستغرق وقتا طويلا للبت فيها اما بالرفض او الموافقة .

وكانت اللجان الوزارية بذلك مجالا اخر امـــام الوزراء واجهزتهم كذا المسؤولين الاخرين لابداء الراي في كافة الموضوعات .

وكان مجلس الوزراء بذلك مؤسسة تعمل بتنظيم دقيق وتعرض عليها كافة الموضوعات قبـل اصـدار قرار بخصوصها .

ومن ثم فليس من العدالة ان يقال انه لم تكن هناك خطط مدروسة أو أن يردد بعض الحاقدين ان القرارات كانت عشوائية !! والا فبالله عليكم ما هو النظام الذي كان يمكن ان يسير عليه مجلس الوزراء خلاف ما حاولت ان اوجز شرحه ؟!

وبالرغم من هذه الدراسات كانت المناقشات تدور لوقت طويل في الامور المتعلقة بالخطة . وكان الرئيس يضيق ذرعا بالطريقة المعقدة التي كانت تعرض بهـا الخطة في اوراقها الكثيرة وجداولها المتعددة فكـان يطالب بتبسيط طريقة عرضها حتى يتمكن كافة الوزراء من مناقشتها لدرجة انه كان يطالب بارفاق موجـز يوضح على سبيل المثال :

كم فدان سيتم اصلاحه ؟ الزيادة المتوقعة مـن انتاج الحبوب او القطن ؟ كم دجاجة سيتـم انتاجها ؟ عدد البيض المنتج ؟ الانتاج الحيواني ؟ الاسمـاك ؟ الحديد والصلب ؟ العربات والثلاجات والسخـانـات والغسالات ؟ الاطارات المنتجة؟ المدارس والمستشفيات؟

فرص العمالة التي تهيؤها الخطة ؟ زيادة الاجـــور ؟ العمالة التي يمتصها قطـــــاع الصناعة من قطــــــاع الزراعة .... الخ .

وكانت هناك مبادىء مقررة تحقق وحدة الفكــر داخل المجلس :

● القروض والتسهيلات الائتمانية يتم انفاقها في المشروعات الانتاجية وليس في الخدمات .

● عدم الميل الى الانكماش والعمل على زيـــادة الانتاج ولم تقل الخطة الاستثمارية حتى فـــي ظروف النكسة عن ٣٠٠ مليون جنيه سنويا ورغما عن متطلبات اعداد الدولة للحرب .

● عدم السماح للبنك الدولي بفرض شروطــــه رغما عن المحاولات العديدة التي تمت في هذا الاتجـــاه كاصراره على تخفيض قيمة العملة المصرية او رفـــع الدعم أو الغاء قوانين المكاسب العمالية أو الاتجاه الى التركيز على الخدمات .

ولم يكن المجلس يلاقي اي صعوبة في تـغطيـــــة احتياجات الخطة من العملة الصعبة فكانت التسهيلات الائتمانية تتوفر من الغرب والشرق على حد سواء وكم ساهمت الدول الغربية الى جانب الدول الشرقية في تنفيذ المشروعات المتعددة وانشاء المصانـــع المختلفة والدليل على ذلك انه بالرغم من ظروف النكســـة فان مشروعات عملاقة كان يتم بناؤها مثل : مشروع التوسع

في مصنع الحديد والصلـــــب ومشروعات الدرفلة ، مشروع الالمنيوم ، مشروع صناعة العربات ، البدء في مشروعات مناجم ابو طرطور ، مشروع الترسانـــة البحرية في الاسكندرية وغيرها من المشروعات .

وكان من اخطر المشروعات التي ناقشها مجلس الوزراء برئاسة عبد الناصر نقل مصانع منطقة القناة جميعها الى داخل البلاد بعد ان اصبحت مهددة بنيران العدو القابع في الشرق وفعلا تم فك المصانع جميعها تحت نيران العدو الموجهة من طيرانه ومدفعيته فتم نقل الحوض العائم لهيئة القناة ومصانعها مثـــل مصانع الاحبال واصلاح السفن ومصانع الالكترونات ثم تـــم نقل معمل التكرير الضخم الى مسطرد ومصانــــــع السماد ... الخ . وكان الجهد الذي بذل في ذلـــك يعادل تماما الجهد الذي بذله الاتحاد السوفياتي فـــي نقل مصانعه الى الاورال ايام الحرب العالمية الثانيـــة بمراعاة الموارد والامكانيات المتيسرة هنا وهناك .

وبعد النكسة ظهرت بعض الاراء عن العمالـــة الزائدة والكف عن التزام الدولة بايجاد عمل للخريجين من الجامعات ورفض الرئيس ذلك قائلا « اي عائلـــة تنتظر انتهاء اولادها من التعليم حتى يجدوا عملا يـــدر عليهم دخلا . وكلنا مررنا بهذه الاوضاع . وعلينا الا نخيب أمل العائلات بعد أن ذاقوا الامرين حتى يتخرج الاولاد والبنات » .

وارتفعت اصوات اخرى تهاجم مجانية التعليم تحت شعار او اخر وكان عبد الناصر يغضب من ذلك فبالرغم من عيوب طريقة التحاق الطلاب بالجامعات وفقا لمجموع الدرجات الحاصلين عليها فانه كان يجد ذلك محققا لمبدئي تكافؤ الفرص وكان يضرب مثلا بابنه التي لم يؤهلها مجموعها للالتحاق بالجامعة فاضطرت للالتحاق بالجامعة الاميركية .

وعلينا ان نتذكر ان هذا ما كان يواجهه عبد الناصر في مجلس الوزراء الى جانب المناقشات التي كان يحضرها في اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكي واللجنة المركزية واللجان العسكرية .

وامنع نفسي مجبرا من الاسترسال لضيق المجال.

ولكن كيف كان يتعامل عبد الناصر مع وزرائه ؟

سيكون هذا حديثنا في الفصل التالي باذن الله .

الفصـــل الثالث

كيف تعامل عبد الناصر مع وزرائه

فضيلة الاستماع بصبر ـــ مسؤول يدعى باقالة لم تحدث ـــ الترصيفة التي لا تصل الى حد الاعتذار ـــ وزير يبحث عن مسكن ـــ عبد الناصر يتراجع ـــ بلاغ كاذب الى الرئيس ـــ القرار بقانون رقم ٩٧ لسنـــــة ١٩٦٩ ـــ ازمة في وزارة الحربية ـــ الوزير يفقـــــد كرسيه ـــ عبد الناصر ظن ان الفئران بدأت تغـــادر المركب لانهم ظنوا انها تغرق .

كيف كان يتعامل « عبد الناصر » مع وزرائه ؟

كان من أهم خصال عبد الناصر قدرته علـــــى « الاستماع » ... وهي ميزة ثمينة لرجل الحكم ورجل الدولة ... كان في امكانه أن يستمع لفترات طويلة دون أن يقاطع او يتدخل فاذا انتهى الوزير من الادلاء برأيه تبدأ المناقشة في هدوء في اغلب الاحيان . لانه احيانا كان يخرج عن هذا الهدوء اذا كان مزاجه متوعكـــا ، او اذا كان المتحدث غير ملم بموضوعه ، او اذا كانـــت

هناك مزايدة لا تتواءم والامكانيات الموجودة او الظروف السائدة .

حدث مرة ان كلف وزير النقل بأن يقدم للمجلس خطة لاصلاح مرفق السكك الحديدية اذ كانت هناك شكاوى من أن حالة المرفق اصبحت تحتاج الى عناية خاصة وطبعا رجع الوزير الى المختصين للدراسة وتقدم بخطته في مذكرة لتعرض بصيغة عاجلة على المجلس وكانت التكاليف المقدرة لتنفيذ اصلاحات المرفق ٤٠٠ مليون جنيه . وبدأ الوزير في القاء بيانه ومبرراته وفجأة قاطعه عبد الناصر قائلا « انت طالب ٤٠٠ مليون جنيه لاصلاح المرفق . وانت تعلم الظروف التي تمر بها البلاد وهي تخوض حربا لتحرير الارض . لو كنت مكاني الان من اين تحصل على هذا المبلغ دفعة واحدة ؟ وحتى لو تيسر لنا ذلك هل لدى المرفق القدرة على انفاق هذا المبلغ في السنة المالية الحالية ؟ » واضاف عبد الناصر قائلا « المسألة ليست التخلص من المسؤولية واثبات مواقف . يجب علينا ان نتقدم بطلبات معقولة تتناسب مع الامكانيات المتاحة . ولكن ما ألمسه في الطلبات المقدمة انها طلبات غير مسؤولة». وطلب من الوزير اعادة الدراسة على اساس الطلبات العاجلة والطلبات التي يريدها في المدى الطويل .

ويردد رئيس هيئة السكك الحديدية الان انه فقد منصبه لانه طالب باصلاح المرفق في ذلك الوقت .

وهذا غير صحيح بالمرة . فرئيس الهيئة ظل في منصبه ولم يمسه احد وقد مضى على وفاة عبد الناصر عشر سنوات كاملة وما زال المرفق على حاله وربما تراجع كثيرا الى الوراء . واظن ان عشر سنوات تعتبر مدة كافية له لاصلاح ما كان يريد . خاصة وانه استمر اغلب هذه الفترة مسؤولا عن المرفق مسؤولية كاملة ومباشرة .

وكان « الريس » اذا شعر انه تجاوز الحد المعقول فانه كثيرا ما كان يصلح من الموقف بطريقة تحمل معنى الترضية ولكنها لا تصل ابدا الى حد الاعتذار .

وكان يفضل الاتصال التليفوني او المذكرات المختصرة عن تكرار المقابلات الشخصية مع وزرائه لانه ربما كان يعتقد ان اجتماعاته المنتظمة مع وزرائه في مجلس الوزراء او في اللجنة المركزية تغني عن تعدد المقابلات الشخصية او ربما كان وقته لا يتسع لمثل هذه المقابلات نظرا لمشاغله العديدة ولكنه لم يتردد في مقابلة احد من وزرائه اذا طلب مقابلته .

وكانت مقابلاته تتم في الطابق السفلي بمنزله في منشية البكري في حجرة الصالون البسيط الذي كانت تتصدره صورة « ام تحنو على وليدها » وعلى رف المدفأة ترتص صور رؤساء بعض الدول المهداة اليه .. نكروما ، تيتو ، بندرانيكا ، سوكارنو ، نهرو ... وفي

احيان قليلة كانت تتم المقابلة في « المكتب » على يسار الداخل .

وكان الرجل يحيط زائره بكل رعاية ... استقبال جيد ... جلسة تحوطها البساطة ... ثم لا بد من مشروب بارد واخر ساخن ... وتقديم سيجارة يحرص على اشعالها بنفسه للضيف . وبعد ان تنتهي المقابلة كان يحرص على توديع الزائر حتى الباب الخارجي ويظل واقفا حتى تتحرك عربة الزائر الى باب الخروج. فتنشر المقابلة في الصحف او لا تنشر حسب تعليمات « الريس » الشخصية .

ولم يكن من عادته ارتداء « البدلة الكاملة » في مقابلاته الا اذا كانت هناك مناسبة تقتضي ذلك اذ كان يفضل ارتداء القميص والبنطلون والصندل وأما في الشتاء فيمكن ان يرتدي « بلوفر » من الصوف . ولم يكن في الوقت نفسه حريصا على ان يقابله « الوزير » في بدلته الكاملة .

كنت ارتدي « البوشرت » في احدى مقابلاتي معه وكانت المرة الاولى التي يراني فيها بهذا الزي وبعد ان صافحني قال ضاحكا « انت الان مثل نيريري » اذ كان الرئيس التانزاني يحرص على ارتداء « البوشرت » بصفة دائمة . وفي تلك المقابلة ايضا اشعل لي سيجارة قدمها لي وحينما قدم السيجارة الثانية اشعلتها مستخدما عود ثقاب فلم يكن معي

« ولاعة » فعلق قائلا « بقى يا أخي وزير وليس معك ولاعة » واهداني في الحال بواحدة ما زلت احتفظ بها في اعتزاز حتى الان .

وكان يجامل وزراءه في الملمات كوفاة احد الاقرباء او في المرض كذلك كان يجامل في المسرات واحيانا كان يحضر بنفسه للتعذية او للاطمئنان على الصحة او في الافراح ولكنه كان عزوفا بصفة قاطعة عن حضور الدعوات الخاصة او المآدب او الزيارات وكانت زياراته الخاصة مقتصرة على منزل او اثنين من منازل القريبين منه يذهب اليها لبضع ساعات في الليل للترويح عن النفس .

ثم كان — في الوقت نفسه — يعاون في حل مشاكلهم الخاصة اذا وصلت الى سمعه وربما استغل البعض عدم قدرته على رفض اي طلب خاصة اذا طلب في منزله استغلالا كان يحرج الرجل احيانا ولكنه لا يظهر ضيقه الا اذا فاض الكيل . ولكنه كان يبادر من نفسه لتقديم المعاونة في الحالات المعقولة .

فمثلا في حالة وفاة وزير او فقده لمنصبه الوزاري كان يمنح الوزير او العائلة معاشا استثنائيا ليحافظ على مركزه الاجتماعي من جانب ولعدم تورطه في اعمال غير لائقة من جانب اخر .

حدث أن « الدكتور حسن مصطفى » وزير

الاسكان في ذلك الوقت كان يعاني من عدم وجود مسكن خاص له اذ انه قبل استيزاره كان يعمل في الخارج واجر مسكنه الخاص لاحد اساتذة الجامعة فلما عاد « حسن مصطفى » ليتولى منصبه الوزاري حاول ان يقنع المستأجر باخلاء المنزل دون جدوى فسكن في « بدروم » المنزل اي في الطابق الاسفل وهذا وضع لا يليق . ولم يتمكن وهو وزير الاسكان من طرد المستأجر واستغل هذا الموقف واخذ يرسل بالشكاوى العديدة الى مختلف الجهات لقطع خط الرجعة على الوزير ان اراد ان يقدم على اي اجراء . ووصلت احدى الشكاوى الى « الريس » طبعا بصورة مشوهة . فاتصل بي غاضبا وطلب مني التحقيق . كان الاخ « حسن » وزيرا نزيها فاضلا عالما طيبا . وفي جلسة خاصة اتضح الموقف ووضعت الصورة « الحقيقية » امام « الريس » فأمر بأن يخصص له احدى الشقق من « الحراسة » علما بأنه كان قد اصدر تعليماته ببيع مثل هذه المنازل في « المزاد العام » .

وحدث نفس الشيء مع حافظ بدوي وزير الشؤون الاجتماعية في ذلك الوقت اذ كان يقطن في شارع الجيش في شقة رأى انها اصبحت لا تتناسب مع وضعه الاجتماعي الجديد وكان حافظ « يتردد » كثيرا في الاتصال بالرئيس لهذا السبب او غيره . الا ان الرئيس حينما علم بذلك امر بتخصيص منزل له رغما

عن الظروف السابق شرحها ورغما عن انه كان يقدم على هذه الحلول وهو كاره محرج . وبهذه المناسبة كان « حافظ » عضوا في لجنة تنظيم الاسرة وكان باسم الله عنده « دستة » من الاولاد وكان ذلك محل تندر دائم من « الريس » اذ كيف يمكن له أن يقنع غيره « بتنظيم اسرته » وعنده مثل هذا « الجيش العرمرم » .؟!!!

وكما سبق القول فان البعض كان يستغل مشاعر الرئيس في أمور محرجة فمثلا أراد احد الوزراء أن يشتري بيتا من البيوت التابعة لاحدى الجهات الحكومية باسم زوجته وتقدم بمذكرة للرئيس اثناء احدى مقابلاته معه في منزله فأشر الرئيس عليها « أمين هويدي للتنفيذ » الا انني اعدت عرض المذكرة على « الريس » مؤكدا ان هذا التصرف فيه مخالفة صريحة لمواد الدستور وللعرف المتبع « رجاء اعادة التوجيه » . وفي اليوم التالي اتصل بي محمد احمد السكرتير الخاص « للريس » وقال لي « انت عملت ايه ؟ الريس هايج ويريدك أن تتصل به فورا على التليفون الخاص » . الا انني ذكرت لمحمد احمد ان الافضل الا اتصل بالرجل في حالة غضبه تلك وسأتصل به في المساء ورجوته ان يخبره بأنني لست موجودا وبأنه يحاول البحث عن مكاني . وحينما اتصلت « بالريس » في المساء تساءل عن مكان وجودي طول النهار . وعرفت أن عبد الناصر

على علم بتفاصيل ما تم بيني وبين الاخ محمد احمد فقلت له « انا كنت في مكتبي ولم اتصل بسيادتك لانني علمت انك غاضب ففضلت الاتصال بعد أن يزول غضبك » .
ويبدو أن هذا لم يكن كافيا للتخفيف من ثورة الرئيس وانفجر قائلا « يعنيّ يا أمين انا اصبحت غير قادر على تنفيذ تأشيراتي . نفذ التأشيرة فورا » . وانهى المحادثة وهو في ثورة غضبه . وفي صباح اليوم التالي اتصل بي « الريس » وكان هادىء المزاج واخبرني وسط الحديث بأنه « يمكن تجاهل الموضوع وعدم تنفيذه واعمل ايه في الناس الذين يحرجوني » . وفعلا تم الغاء الموضوع . وهذه القصة تضاف الى حساب عبد الناصر لان موقفي فيها لا يتعدى القيام بالواجب بأمانة أما ان يتراجع عبد الناصر عن تأشيرته ففيه عودة الى الحق رغم موقفه المتصلب في اليوم السابق ... وكثيرا ما فعل الرجل ذلك على عكس ما يقال .

ولا بأس من ذكر قصة اخرى لتعزيز ما اقول ...

وصلته مذكرة كتابية من احد رؤساء تحرير المؤسسات الصحفية الكبرى كان يحرص على امداده بالمعلومات او الاخبار عن انحراف قام به احد اعضاء جهاز الرقابة الادارية واتصل بي الرئيس ـ وكنت في ذلك الوقت وزيرا للدولة ورئيسا للمخابرات العامة ـ وامرني بالتحفظ على الموظف والتحقيق معه . وكان

« الريس » ثائرا ... وارجعت ثورته الى ثقل الاتهام والى حساسية الجهة التي ينتمي اليها الموظف والى ثقة الرئيس الكبيرة في رئيس التحرير المذكور .

وضقت ذرعا بالمأمورية الثقيلة لانني منذ اشرافي على جهاز المخابرات العامة في ١٩٦٧/٨/٢٦ وحتى تركته في فبراير — شباط ١٩٧٠ لم استخدم سلطة الضبطية القضائية التي خولني اياها القانون ولو لمرة واحدة بل ولم اوافق على استخدامها بواسطة اي فرد من الجهاز وفي الوقت نفسه منعت قيام الجهاز بواجب التحقيق المخول له قانونا وكنت افضل احالة كافة القضايا الى النيابة العامة والى نيابة امن الدولة وبذلك اقتصر واجب الجهاز على جمع الادلة بوسائله الخاصة وتقديمها الى سلطات التحقيق لترى ما تراه .

ولم يكن أمامي الا ان ابدأ التحقيق مع المذكور . ووضح لاول وهلة براءته الكاملة مما اسند اليه اذ كانت المستندات التي تحت يده تثبت ذلك بصفة قاطعة ولم اتردد في الاتصال بالرئيس على الفور ليلغي قرار التحفظ وقبل ان انتهي من عرض القضية تماما غضب الرئيس « فالموضوع يحتاج الى مزيد من التمحيص ثم يا اخي انا امرت بالتحفظ ولازم ينفذ هذا الكلام ثم لازم تبطل دماغك الناشفة دي » . وانهى الرجل المكالمة .

.ومر بعض الوقت وانا اعاني من عوامل نفسية متبابنة .

الا ان « الريس » عاد واتصل بي ولمست لاول وهلة ان هدوءه عاد اليه واخذ يطلب بعض التفاصيل وعلى الفور أمر بالغاء التحفظ على المذكور مع استمرار التحقيق لمعرفة المتهم الحقيقي . وانتهى التحقيق الى اتهام اثنين ببعض المخالفات الجسيمة وكانا شقيقين لعضوين من اعضاء اللجنة التنفيذية العليا الى جانب اخرين ... وعرض « الريس » الموضوع في احد اجتماعات اللجنة التنفيذية ووقع على الشقيقين الجزاء المناسب .

وكانت التعديلات الوزارية التي يجريها « عبد الناصر » تتم في تكتم شديد لدرجة ان الكثيرين ممن كانت تشملهم التعديلات لا يدرون بها الا من الصحف او قبل اعلانها بوقت قصير وفي اغلب الاحيان لم يكن يعرف اسباب خروج الوزير من الوزارة ولا يفضل الكثيرون هذه الطريقة في أجراء التعديلات التي تحدث في قمة السلطة الا انه لم يكون خصومة شخصية مع اي ممن تشملهم التعديلات الوزارية . فكان يمنح البعض معاشات استثنائية اذا كانت ظروفهم المالية تستدعي ذلك ، ثم كان يعيد الوزير الى منصبه الوزاري بعد فترة قد تطول وقد تقصر ، او كان يوافق على ان يشغل اي عمل في الداخل او الخارج كرئيس هيئة من

الهيئات او كاستاذ في الجامعة او كسفير في وزارة الخارجية او في أي منصب في الهيئات الاجنبية اذ كان يعد ذلك مكسبا قوميا يجب ان نسعى اليه .

الا انه حدث بعد احد التعديلات الوزارية ان التحق وزيران بشركات اجنبية كانت لها اعمال تتعلق بوزارتيهما وكان التعيين بعد فترة قصيرة من اجراء التعديل الوزاري وغضب عبد الناصر واثار الموضوع في احاديثه « لانه من الواجب ابعاد اي شبهة عن المنصب الوزاري خاصة في تعامله مع الجهات والشركات الاجنبية حيث ان مثل هذه التعيينات قد تثير تساؤلات وشكوكا عن طبيعة العلاقات بين الوزير والشركات التي كانت تتعامل مع افرع وزارته وعلى اساس أن الموضوع لو ترك هكذا دون تنظيم فانه قد يفتح مجالات يحسن قفلها » . وأمر باصدار قرار ينظم عمل الوزراء بعد خروجهم من التشكيل الوزاري . فصدر قرار رئيس الجمهورية بالقانون رقم ٩٧ لسنة ١٩٦٩ بتنظيم العمل لدى جهات اجنبية بالنسبة لوظائف معينة ونصت المادة الاولى منه على أنه « لا يجوز للوزراء ونواب الوزراء ومن في درجتهم ان يعملوا لدى الحكومات او المؤسسات الاجنبية بأشكالها المختلفة أو لدى الاجانب او أن يقوموا بأي عمل لحساب تلك الجهات خلال الخمس سنوات التالية لترك مناصبهم ولا يسرى هذا الحظر على من يعملون لدى الهيئات

الدولية » . ثم نصت المادة الثانية على انه « يجـوز بقرار من رئيس الجمهورية اضافة وظائف اخرى يخضع شاغلوها بعد انتهاء عملهم بها لاحكام هذا القانون » .

وفي كل الحالات لم يمانع « الرئيس » في «اضافة وظائف اخرى » الى من طلب التصديق بذلك بشرط أن يحافظ على كرامة المنصب الذي شغله من قبل . وقد حدث مثلا أن وزيرا سابقا للسياحة طلب الموافقة لـه على العمل باحدى الهيئات الدولية ووفق على طلبـه ولكنه ظهر أنه نقل مجال عمله الخاص الـى منطقـة الخليج علاوة على أنه أساء اساءة بالغة في التعامـل الذي خرج عن حدود الامانة هناك . وعلم « الريس » بذلك غحدد اقامة الوزير السابق في منزله وأمـر بوضعه على قوائم الممنوعين مـن السفر . وليس صحيحا ما كتبه الوزير من أنه اعتقل لانه قال « لا » لعبد الناصر . ولكن حددت اقامة هذا الوزير لانه لم يصدق حينما طلب الموافقة على عمله باحدى الهيئات الدولية ولم يكن هذا صحيحا . ولانه تعامل بطريقة تقرب مـن الاحتيال مع دول عربية ولم يكن هذا جائزا .

وكان « الريس » ملما تمام الالمام بمـا يدور .. كان قارئا ممتازا يطلع على احدث المؤلفات التي تصدر في الخارج فربما قرأ الكتاب كله وربما قرأ بعضا منـه وربما أمر بتلخيصه حتى يقرأ موجزا عنه . ولا يمكن لاي فرد ان ينكر سعة اطلاعه وثقافته الواسعة والمامـه

بالمتغيرات الدولية والعوامل المتجددة التي تدور على الصعيدين الاقليمي والعالمي .

حدثت أزمة أثناء كنت وزيرا للحربية عقب النكسة ... كانت القيادة العامة للقوات المسلحة تعيش وقتئذ في نفس المناخ الذي عاشت فيه قبل النكسة ... فأراد عبد الناصر أن يقلم اظافرها بتعيين وزير مدني على رأسها يحاول ان يخضعها للمسؤوليات الوزارية والبرلمانية كغيرها من الوزارات ، ويحاول ان يرجعها الى حدودها بعد أن كانت تمددت وتورمت واصبحت تتداخل في امور كثيرة خارج اختصاصها ، ويحاول أن يخضعها الى الرقابة المالية للاجهزة المسؤولة عن ضبط حسابات الدولة ... ولم يكن هذا الامر سهلا بل سبب منذ الوهلة الاولى تصادمات وصراعات حتى والعدو جاثم على الضفة الشرقية للقناة ... وكنت اتناقش في احدى المرات مع « الريس » فيما يحدث وابتسم الرجل في تعب وسألني « هل قرات كتاب رجال البنتاجون » ؟

Men of the Pentagon - from Forrestal to McNamara — By C. W. Borklad .

واسقط في يدي اذ لم اكن قرأته او سمعت عنه . ونصحني الرجل ان اقراه . اقراه !!! متى « يا ريس » اقرا كتابا وانا لا اكاد اجد وقتا للنوم وانا أمر على المطارات في الهليكوبتر من الفجر حتى اخر ضوء ثم

على مواقعنا الدفاعية في القناة ثم قضايا التسليح والميزانية واعادة تنظيم القوات ثم عملي في المخابرات العامة ..!!! واحضرت الكتاب وقرأته من الغلاف الى الغلاف . وبعد اسبوعين سألني « الريس » عما اذا كنت قرأت كتاب «رجال البنتاجون» ؟ فأجبته بالايجاب. فتساءل عن رايي واجبته « لقد قرأت يا سيدي الرئيس عن الصراعات المريرة التي خاضها وزراء الدفاع مع رجال المؤسسة العسكرية حتى تكون القوات العسكرية خاضعة لسياسة الدولة » . واعجبني روبرت ماكنمارا الذي كان يصر على ان يسير العسكريون في الخط والذي كان يصر على ان يقود جهازه وليس العكس ولضخامة مسؤوليته فانه قال لرئيس الولايات المتحدة انه ما كان في مقدوره أن يستمر في موقعه دقيقة واحدة دون التأييد الكامل للرئيس في معاركه الصعبة . وفهم الرجل ما اقصد ولكنه لم يرد ... فأضفت قائلا « ولو لم يحدث ذلك يا سيادة الرئيس لحدث له ما حدث لجيمس فورستال الذي افقده رجال البنتاجون عقله وانتهى به الامر أن يغافل الجميع وهو يعالج في المستشفى وينتحر » وبعد ذلك تردد عبد الناصر كثيرا في حسم المسؤوليات والسلطة داخل القيادة العامة للقوات المسلحة وهنا اخبرته بتوقفي عن ممارسة مسؤولياتي كوزير للحربية حتى يحسم الموقف . وبعد

اسابيع عديدة حسم الموقف بطريقته التي فضلها وتركت وزارة الحربية قبل ان افقد عقلـــــي او اقدم علـــى الانتحار !!!

وملحوظة سريعة ... رغما عن المحاولات العديدة التي حاولها « الريس » فقد صممت على موقفي ولـــم اتنازل عنه ورفضت تحمل مسؤولية غير واضحة المعالم ... ولكن الاهم من ذلك ان عبد الناصر لم يصبنـــي بنازلة او صاعقة كما يحاول البعض أن يصوروه وهم يبررون مواقف باركوها في حياته وتنكروا لهـــا بعـــد مماته !!!

وما دمنا نتحدث عن قراءاته فان « الريس » كان يقرأ كل الموضوعات التي كانت تصله ولذلك كان ملمـــا الماما كاملا بما يدور ويحدث وكان من المستحسن لمـــن يعرض موضوعا من الموضوعات او يسأل عن موضوع الا يخوض فيه اذا لم يكن متمكنا منه مدركا لتفاصيلـــه ملما بجوانبه لانه كان سيجد نفسه بعد فترة وقد تورط حتى ركبتيه . وكان يطالب الوزراء ان يكونوا ملميـــن بما يجري في وزاراتهم خاصة بعد ان رفع عن كاهـــل الوزير كل شيء يمس التنفيذ وتفرغ للتخطيط والمتابعة . وقد حدث ان المرحوم احمد توفيق البكري وزير الصناعة لم يكن يدري ان بعض الاضطرابات العمالية قـــــد حدثت في قطاع الصناعة في الصباح الا عند مناقشة الموضوع في مجلس الوزراء الذي تصادف وان عقـــد

احدى جلساته في مساء نفس اليوم . وبعد ان ادلى وزير الداخلية شعراوي جمعة ببيانه التفصيلي عن طبيعة الاضطرابات ومطالب العمال والاتجاهات السائدة بينهم جاء دور « البكري » وعاتب وزير الداخلية على عدم اخباره بالاحداث وقت وقوعها . وهنا تساءل « الريس » بصوته المنخفض « كيف ذلك ؟ كيف لا تكون قنوات الوزير مفتوحة على قطاعه ؟ كيف لا يشعر الوزير بكل ما يجري في قطاعه ؟ واذا كان الوزير لا يعرف بالاضطرابات التي تحدث في المصانع وبأسبابها حتى يعالجها فماذا يتبقى له ؟ كيف لم ينتقل الوزير الى المصانع ليواجه العمال سياسيا ويبدأ الحوار معهم ؟ » ولم يعط البكري اجابات مقنعة .

ورغما عن ان الرجل — رحمه الله — كان فاضلا امينا الا إنه فقد منصبه الوزاري في نفس الليلة وعاد عزيز صدقي وزيرا للصناعة وبعد فترة وجيزة تولى « البكري » رئاسة مؤسسة الطيران ليواجه فيها متاعب جديدة نتيجة لوجود بعض الاضطرابات بين العاملين ولكنه كان يتتبع الامر بعينين مفتوحتين تراقبان كل ما يحدث .

وفي اول اجتماع لمجلس الوزراء حضره عبد الناصر بعد النكسة هبت العواصف في اكثر من اتجاه ... كان اول من تحدث حسين الشافعي وبدأ يتحدث عن الاخطاء والسلبيات التي ادت الى النكسة بصوته

الهادىء العميق ... اخذ ينقد « الانفرادية في اتخاذ القرارات » ثم تناولْ موضوع « الحراسات » واخذ يذكر الرئيس انه تحدث مرارا اليه بخصوصه . واستمع الرئيس في هدوء وصبر حتى انتهى من حديثه .

وبدأ الرجل في الحديث وتساءل : لماذا لم يدلي حسين الشافعي بمثل هذه الاراء من قبل ؟ لماذا لم ينتقد اسلوب الحكم الا بعد الهزيمة ؟ لماذا يختار هذا الوقت بالذات ؟ ثم ضحك بمرارة وهو يردد المثل الشائع « لما العجل يقع تكثر سكاكينه » واخذ يعدد امام المجلس القرارات الهامة التي اخذت قبل النكسة واهمها سحب القوات الدولية وغلق خليج العقبة أمام السفن الاسرائيلية واكد انها تمت بموافقة الجميع . وقد امن على حديثه السيدان زكريا محي الدين وانور السادات وكانا يحضران الجلسة . واخذ الرجل يعد الموضوعات والسيدان زكريا والسادات يؤمنان على ما يقول « الريس » . ثم عاد لينفي ان الشافعي اعترض على الحراسات ولكنه كان يفاتحه في رفع الحراسة عن بعض اقربائه ممن طبق عليهم قانون تصفية الاقطاع واكد انه لم يستجب نرجائه حتى لا تكون هناك استثناءات في تنفيذ القانون . ثم عاد « الريس » ليتساءل : اذا كان اسلوب الحكم ليس محل رضائك لماذا لم تقدم استقالتك كما فعل البغدادي وكمال حسين وحسن ابراهيم ؟ لماذا تبقى في حكم لا ترضى عن

اتجاهاته ؟ لماذا يظل في المسؤولية في ظل قوانين تتعارض مع معتقداته ؟

ورد الشافعي « الاستقالة ابسط شيء لا تكلف الانسان الا قصاصة من ورق » . ورد الريس « لماذا لا تقدم هذه القصاصة ؟ » .

وتوقف الرجلان عند هذا الحد ... ولا أدري ماذا تم في الكواليس بعد ذلك .

ولكن الشافعي لم يقدم استقالته كما ان عبد الناصر لم يقدم على اقالته حتى يوم وفاته .

وتحدث بعض الوزراء لينقدوا قرارات شاركوا فيها ووقعوا عليها وايدوها بل طالما القوا الخطب في الاجتماعات الجماهيرية ليمتدحوها ويبيعوها للجماهير . وهنا تساءل عبد الناصر والمرارة تكسو وجهه : « كل ما يحزنني هو انكم تنقدون الان ما سبق لكم أن ايدتموه » . وقد لا اكون مخطئا أن تلك الجلسة كانت نواة لما عرف بعد ذلك ببيان ٣٠ مارس .

ورايت عبد الناصر في تلك الليلة وهو يغادر قاعة الاجتماع وقد زاد انحناء ظهره وكأنه اصبح شيخا في الثمانين .

كانت صدمة النكسة قد هزت كيانه ، ثم زاد من همومه « الردة » المحدودة التي حسبها فئرانا تغادر المركب الغارقة .

وبعد فترة قصيرة استماد نفسه وبدأ يحاول أن يوجه الاحداث .

الفصل الرابع

فات عبد الناصر ان يحيي جهد وزيره — أزمة حلمي مراد — الوزير الزئبقي — هز الحكم بين وقت واخر — لا توجد ادارة اشتراكية أو ادارة رأسمالية ولكن توجد ادارة ناجحة — عبد الناصر لم تعجبه لحية الوزير .

في الفصل السابق كنا نتحدث عن بعض الازمات التي كانت تحدث في مجلس الوزراء أيام عبد الناصر ولا بأس من تعداد مواقف أخرى اتسمت بالحدة .

عقب صدور قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ بعد نكسة ١٩٦٧ عاد محمود رياض وزير الخارجية الى القاهرة رأسا بعد أن طالت غيبته في الولايات المتحدة الامريكية يحاول الحصول على افضل قرار سياسي يمكن الحصول عليه ونحن في موقفنا العسكري الذي كنا عليه في ذلك الوقت .

ومن المعروف أن الولايات المتحدة حالت دون صدور قرار عادل من المجلس فلاول مرة في تاريخ مجلس الامن يصدر قرار لا ينص فيه على انسحاب القوات الى المواقع التي كانت فيها القوات قبل حدوث التصادم . ومن المعروف أيضا أنه من الناحية الواقعية البحتة فان

اي قرار سياسي هو ترجمة حقيقية لما يحدث في مسرح العمليات بحيث لو وضع القرار السياسي في كفة ميزان والموقف العسكري في الكفة الاخرى ما رجحت احدى الكفتين عن الاخرى بأي حال من الاحوال . فهذه قاعدة هامة من قواعد ادارة الصراع الدولي .

ووقت ان هبطت الطائرة علم محمود رياض أن مجلس الوزراء يعقد جلسته العادية فاتجه من فوره من المطار راسا الى قاعة الاجتماع في قصر القبة . ورحب عبد الناصر برياض وهنأه بسلامة الوصول ثم اضاف مبتسما « هل هذا هو كل ما امكنك الحصول عليه يا رياض . ؟! »

ورغما عن أن « رياض » لا يحتد الا في القليل النادر الا انني احسست — وقد كان مكاني الى جواره في المجلس — ان الرجل يبذل مجهودا خارقا ليسيطر على انفعالاته ، وهو يقول « القرار ده لن ينفذ بواسطة اسرائيل الا اذا اجبرناها عسكريا على ذلك . تنفيذ هذا القرار يتوقف أولا واخيرا على جهدنا الذاتي ونمو ارادتنا » كان « رياض » يتحدث بصوت متهدج لانه ظن أن « الريس » يقلل من قيمة الجهد الذي بذله في مجلس الامن أمام عدو حصل على انتصار لم يكن يحلم به وحليف كبير يؤيده تأييدا لا حد له .

ولم يكن « الريس » يقصد ذلك على الاطلاق لانه كان يقدر الموقف بطريقة واقعية ولذلك فانه قال « فاتني

ان أحيي الجهد الذي بذله رياض وهو في موقفه الصعب هناك في نيويورك . وأنا أوافقه تماما على ما قال لانه لا يوجد شيء يدعو اسرائيل الى الانسحاب . »

وارتسمت علامات الرضا مرة اخرى على وجه رياض .

ولننتقل من هذا الموقف « الحاد » لنتحدث عن أزمة خلقها وصنعها « حلمي مراد » وزير التربية والتعليم في ذلك الوقت .

وقبل أن أنطق بحرف واحد اريد أن أقرر ان حلمي كان يبادلني الاحترام والتقدير ... فكنت أقدر فيه صراحته وانفتاحه على أجهزة الاعلام حتى ولو رأى البعض انها كانت تزيد عن الحد الواجب ... وكان بدوره يقدر في شخصي — كما كان يقول دائما — انني استخدم في بعض تنقلاتي الاوتوبيس والمترو حتى وأنا أشغل منصبي الوزاري علاوة على أمانتي واستقامتي . وحتى الان فانني لا انسى تقديري له ولا اظن انه نسي بدوره .

ونعود ثانية الى الازمة التي خلقها حلمي مراد .

في أحد اجتماعات مجلس الوزراء كلف « الريس » الدكتور حلمي برئاسة لجنة لاقتراح خطة لتنفيذ ما جاء في بيان ٣٠ مارس من مبادىء وخطوط عامة وكان عضو اللجنة هو الدكتور عبد العزيز حجازي وزير الخزانة وكان على اللجنة — بموجب هذا التكليف —

الاتصال بالوزارات والجهات المختلفة للوقوف على آرائها في التعديلات المقترحة .

وبنشاطه المعهود انهى حلمي مراد اعماله ووزع خطته على الوزراء لدراستها تمهيدا لمناقشتها في المجلس. وقد ظهر عند اجراء المناقشة أن حلمي مراد انفرد باقتراح الخطة المقدمة فلا هو اخذ رأي اللجنة ولا هو اتصل بالوزراء أو الجهات الاخرى للوقوف على الاراء المختلفة وقد أثار ذلك مناقشات حادة واعتراض الوزراء على ما ورد في التقرير المقدم لانه على حد إعتراضهم يحوي آراء شخصية لا تتصل بالواقع . وواجه حلمي الاعتراضات بابتسامته الحائرة مشيدا بالروح الحرة التي تسود مناقشات المجلس . وتدخل « الريس » لينقذ حلمي فشكر له جهده ورجا أن تعيد اللجنة النظر في الاقتراحات المقدمة على ان يكون عملها جماعيا وعلى أن تتصل بكافة الجهات والقطاعات للوقوف على آرائها على أن يعاد مناقشة الموضوع مرة أخرى داخل المجلس.

الا أن حلمي مراد رأى أن ينشر تقريره الذي سبق أن قدمه للمجلس في مجلة «روز اليوسف » قبل اعادة دراسته كتكليف مجلس الوزراء له لان حلمي كان لديه ميل غريزي للنشر في الصحافة وحاول الزميل محمد فايق وزير الارشاد في ذلك الوقت اقتناعه بأن من الاوفق عدم النشر طالما لا يزال الموضوع محل بحث مجلس

الوزراء الا أن حلمي مراد اصر على النشر . وتم لـه ما أراد .

وفي أول اجتماع لمجلس الوزراء افتتح «الريس» الجلسة باثارة موضوع نشر التقرير في مجلة « روز اليوسف » واعترض الرئيس على النشر لعدة أسباب :

● فنشر التقرير على أنه تقرير « لجنة وزارية » لا يطابق الواقع اذ أن التقرير كان يعبر عن راي رئيس اللجنة دون الرجوع الى الاعضاء الاخرين .

● ثم مازال الموضوع معروضا على مجلس الوزراء لم يتم البت فيه بل كلف رئيس اللجنة باعادة بحثه الامر الذي لم يتم حتى نشر التقرير في المجلة وما كان يصح ذلك لانه لم تجر العادة على نشر موضوعات ما زالت محل مناقشة المجلس الا اذا رؤي فتح المجال على مصراعيه للوقوف على اتجاهات الراي العام .

● ثم كون التقرير يحتوي على نقد ثقيل لاغلب الوزارات والوزراء فسوف يصبح من حق هؤلاء الرد على ما أثاره التقرير ويبدو الوزراء أمام الرأي العام منقسمين على أنفسهم ويصبح رئيس الوزراء «طرطورا» أمام الجميع وهو يرى وزراءه في معارك صحفية مع بعضهم البعض .

واختتم « الريس » حديثه بأن العمل الذي قام به الدكتور حلمي عمل جانبه الصواب سواء من ناحية الشكل أو الموضوع .

وقد حاول حلمي أن يوضح وجهة نظره بطريقة لم تقنع « الريس » ولم تقنع زملاءه في نفس الوقت وحاول الاعتذار الا أن الرئيس أكد له في صوت قاطع أن الاسلوب الذي اتبع يعيد الى الاذهان المناورات الحزبية القديمة الامر الذي يتعذر معه استمرار التعاون « بيني وبين الاخ حلمي مراد . » . . . وفجأة ترك الرئيس الجلسة غاضبا .

ووجد الدكتور حلمي مراد نفسه في وضع لا يحسد عليه . . . ترك أوراقه على المائدة دون أن يكترث بجمعها وهرع خلف « الرئيس » محاولا اللحاق به للاعتذار وكان « الريس » في عربته يحادث الاخ محمد فوزي وزير الحربية وكان الدكتور حلمي ينتظر دوره الا انه بعد انتهاء « الريس » من حديثه مع وزير الحربية أمر عربته بالتحرك . ووجد الاخ حلمي نفسه مرة أخرى في وضع لا يحسد عليه .

الا أنه لم ييأس واستقل عربته مسرعا ليلحق « بالريس » في داره بمنشية البكري » وألح في مقابلته لتقديم اعتذاره الا أن الرئيس رأى الا يقابله في تلك الليلة . ووجد الاخ حلمي نفسه مرة ثالثة في وضع لا يحسد عليه .

وحاول عدة محاولات في اليوم التالي دون جدوى وظل على محاولاته تلك الى أن أعفي من منصبه وخلفه حافظ غانم وبعد فترة وجيزة وافق الرئيس على اعادة

حلمي الى الجامعة ليشرف على بعض الدراسات العليا .

سمعت الكثير عن هذه الازمة مما يحتاج الى تعليق ...

● سمعت أن حلمي مراد هو الذي استقال وهذا غير صحيح اذ ان حلمي أعفي من منصبه بل حاول جاهدا أن يتلافى ذلك الا أنه فشل في كافة محاولاته .

● وسمعت أن الرئيس غضب عليه لانه الوحيد الذي كان يقول « لا » في المجلس ولم يكن هذا صحيحا . بل يكذب ذلك تكذيبا قاطعا قصة تعيينه في الوزارة ... اذ ان حلمي مراد وقت أن كان وكيلا لجامعة القاهرة اعترض على أسلوب وزير التعليم العالي في ذلك الوقت المرحوم عزت سلامة في معالجته لموضوع « تطوير الجامعات » وكان الرأي العام السائد أن الوزير تخطى راي الجامعات واعتدى على استقلالها . وأبلغني حلمي برأيه هذا بصفتي وزيرا للدولة فنقلت وجهة نظره تلك الى السيد صدقي سليمان رئيس الوزراء في ذلك الوقت والى « الريس » وكانت وجهة نظر حلمي مراد محل اعتبار عند نظر القضية . واثر هذا الموقف الشجاع رشحت حلمي — ولعله لا يعرف حتى الان — مديرا لجامعة الازهر اذ كنت في الوقت نفسه وزيرا للدولة لشؤون الازهر ووافق الرئيس .. وقبل اتمام المناقشة مع « الريس » قال « ولماذا لا يتولى وزارة التربية

والتعليم ؟ احنا عاوزين ناس لهم مواقف . » اذن فسر اختياره وزيرا موقفه الشجاع أيام قضية « تطوير الجامعة » ولا يعقل أن تكون شجاعته وراء فقدانه لمنصبه الوزاري .

● وسمعت أن سبب غضب الرئيس عليه هو انه كان له رأيه الخاص فيما سمي بعد ذلك « بمذبحة القضاء » . وللتاريخ فان ما تم في القضاء في ذلك الوقت كان بموافقة اللجنة التنفيذية العليا وموافقة مجلس الوزراء وبعض رؤساء تحرير « السلطة الرابعة » وهي الصحافة بل وبعلم « مجلس الشعب » وكان الدكتور حلمي فعلا يريد معالجة الموضوع ككثيرين غيره عن طريق الحوار الا ان لغطا كثيرا اثير في ذلك الوقت عن أن بعض مناقشات المجلس كانت تتسرب عن طريقه .

● وسمعت أن القرار الصادر بمنع الوزراء من العمل لدى الحكومات او المؤسسات الاجنبية خلال الخمس السنوات التالية لترك مناصبهم والسابق التحدث عنه في مقالنا السابق قد صدر خصيصا لمنع الدكتور حلمي من العمل . وقد سبق ان شرحنا في الفصل السابق ظروف صدور القرار اذ صدر بمناسبة تعيين وزيرين في شركتين اجنبيتين تزاولان نشاطهما في القطاعين الذين كان يشرف عليهما الوزيران وذلك بعد خروجهما من الوزارة بمدة قصيرة ولم يكن الامر

يتعلق بالدكتور حلمي من قريب او بعيد فعبد الناصر لم يكن في حاجة الى اصدار قانون بدافع شخصي اذ كان يكفيه الا يوافق على تعيين « حلمي » او خلافه فينتهي الامر . ثم لم يكن من عادة عبد الناصر تطويع القانون لارادته الشخصية ، ولم يكن من عادته التدخل في اعمال القضاء اذ كانت له فلسفته الخاصة في مثل هذه الامور . ولم يكن « حلمي مراد » في يوم من الايام من الخطورة السياسية حتى يصدر قانون خاص لتطويق نشاطه الذي يهدد الحكم . ثم اهم من كل ذلك فان الرجل قد اعفي من منصبه في ١٠ ايلول — تموز ١٩٦٩ ١٩٦٩ وصدر القانون المشار اليه في ١٩ ديسمبر — كانون اول ١٩٦٩ اي بعد الاعفاء باكثر من خمسة شهور كاملة . وهذا الفاصل الزمني الكبير بين قرار الاعفاء وصدور القانون دليل قاطع على عدم علاقة صدوره بأي شخص من الاشخاص وعلى الاخص حلمي مراد . كان القانون اجراء تنظيميا اصدره الحكم لتحقيق نزاهة افراده ومنعا لشبهات لا داعي لها .

ولكن هناك كلمة حق لا بد وان تقال . فانني لم اسمع او اقرأ ان الدكتور حلمي مراد ردد ما سبق بنفسه ولسانه بل قرأت ذلك مرارا في بعض الصحف ذات الاتجاهات المعروفة لتغذية الحملة المسعورة ضد عبد الناصر . لانني اعتقد ان الزميل حلمي مراد لا يمكن ان يتقول بما لم يحدث .

وكان اختيار الافراد مهمه شاقه وصعبه وهي فعلا كذلك يشعر بصعوبتها كل من مارس الحكم فكل الافراد لهم مزايا محددة ، وكل الافراد يتحدثون عن المبادىء والمثل ، واغلبهم ينافق ويتقرب من مراكز السلطة ولو على جثث المبادىء والاصدقاء . والفيصل الحقيقي للاختيار هو الممارسة الفعلية . ويظهر المعدن الاصيل عندما يمارس السلطة او يؤتمن على المال العام . فالبعض يستغل السلطة للصالح الشخصي وهو ما زال يرفع عقيرته مناديا بالشعارات والمبادىء ، والبعض يسيء استغلال المال العام وهو ما زال يتحدث عن النزاهة والامانة .

والكفاءة العلمية ليست بالضرورة هي الفيصل . فالمراكز الحساسة شيء اكثر من التخصص في موضوع معين لان ادارة الدولة خلاف العمل في مراكز الدراسات ومعامل البحوث وقد سئل روبرت مكنمارا عن سبب الفجوة التكنولوجية بين اوروبا والولايات المتحدة الاميركية فذكر دون تردد انها « فجوة ادارية فالادارة هي التي تحول الافكار الخلاقة الى واقع ملموس » وقد أفاض مكنمارا من ذلك في كتابه « جوهر الامن » .

وكانت الترشيحات تتم عادة بواسطة الوزراء والجهات الرئاسية الاخرى وكان من المعتاد ان تتم عملية جمع المعلومات عن المرشحين بواسطة الاجهزة

!المختلفة وهو اجراء متبع في كافة الدول المتحضرة وهو امر لا يتعلق بالولاء انما يتعلق بالامـــن بوجه خاص وتعتبر الدول المتحضرة ان هذا الاجراء اجراء مساعد في عمليات الاختيار . بل لا ينبغي ابدا ان تقتصر عمليـة المتابعة في فترات الترشيح بل لا بد وان تستمر فـي فترات الممارسة وهو امر لا يتعلق بالحرية الشخصيـة التي لا بد وان تمارس في حدود مصلحة الدولـــة وامنها .

وكان كثير من الوزراء يمارسون حقوقهم فـــي الاختيار وتساعدهم جهات الامن في تأكيد حســن اختيارهم او الثغرات الواضحة في هذا الاختيار وكان الريس غالبا ما يوافق على ترشيحات الوزراء . ولكن كان وزراء آخرون لا يمكنهم ممارسة حقهم الا بالتردد على مكاتب خاصة اعتقدوا انها مركز السلطة الحقيقية . وهم لا يدرون انهم بذلك خلقوا دوائر نفوذ لا يجـــوز وجودها ...

ولقد هاجم هذا الاجراء ـ اجراءات الترشيحات وجمع المعلومات عن المرشحين ـ الدكتور عبد الوهاب البرلسي وزير التعليم العالي على صفحات المجلات ايام انتشرت موجة مهاجمة « عبد الناصر » وظن الرجـل الطيب انه لا بد وان يركب احدى الموجات لعلها تلقي به حيث كان في يوم من الايام او على الاقل قريبا مما كان . واختلق أزمات لم تحدث ولبس ثياب المدافع عن كرامة

رجال الجامعات ضد الاجهزة التي « تتجسس » عليهم . ولم يكن هناك شيء من ذلك على الاطلاق . ولكن ربما يكون الرجل الطيب لا يعرف الاجراءات الواجبة وربما يكون الرجل قد تصور ان ترديده على بعض المكاتب واخذ موافقة بعض الاشخاص كان بمثابة التصديق النهائي على ما يريد أو على ما يريد غيره له وهو لا يعلم ايضا ان هذه الاجراءات القانونية كانت تساعده على الاحتفاظ بحريته في انتقاء مساعديه بدلا من أن يتم الاختيار عن طريق غيره ولقطع خط الرجعة على هؤلاء الذين ارتضى ان يحركوه فلا يلقبونه الا « بالرجل الزئبقي » . والذين اسفوا لموقفه من عهد شارك فيه !!!

ومسائل التعيينات تلك لم تكن تناقش في مجلس الوزراء ولهذا مغزاه فالمسؤولية ملقاة على عاتق الوزير وهو الذي يختار معاونيه وبعد ذلك يكون مسؤولا عن عمله الجماعي وانتاجه الجماعي أمام مجلس الوزراء . والوزير الذي يقبل ان يفرض عليه احد معاونيه دون اقتناع منه بقدرته وامكانية التعاون معه مقصر في حق نفسه ومقصر ايضا في حق مسؤوليته . كما أن الوزير الذي لا يقبل النصح في اختيار معاونيه وتشبث بهم ظالمين ومظلومين مقصر ايضا في حق نفسه وفي حق مسؤوليته .

وكان من عادة عبد الناصر ان يهز الحكم بين وقت

وآخر باجراء حركات تعيينات وتنقلات في اجهزة الانتاج والخدمات على حد سواء . كان لا يميل كثيرا الى أن « يستقر » فرد في مكانه لفترة طويلة . وكان هدفه من وراء ذلك ادخال الدم الجديد الى شرايين اجهزة الدولة من جانب والى القضاء على « الشللية » و « التحزب » من جانب آخر . وكان الوزراء عادة ما يقومون بهذه التغييرات . وكانت هذه الطريقة لها حسناتها ومعايبها كأي طريقة من طرق واسلوب ممارسة الحكم .

وكان عبد الناصر غير « مزمت » ولا يميل ابدا الى التطرف . فالتطرف شيء والثورية شيء اخر . كان عبد الناصر ثائرا ولكنه لم يكن متطرفا ولا متزمتا . فبالرغم من أنه كان اشتراكيا بطبعه الا انه كان يفسر اشتراكيته في بساطة ويسر « فرجل الشارع لن يهتم بنا لو نادينا بالاشتراكية ليل نهار ... سيتركنا ننادي بالاشتراكية فاذا نظرنا الى الخلف سنجد أن الشعب قد انصرف الى همومه واننا نسير وحدنا خلف شعاراتنا ... الاشتراكية بالنسبة للاسرة عبارة عن أكل ضروري ومسكن لائق وأن الرجل يجد عملا له ولاولاده ثم يكون قادرا على تزويج بناته » . ثم في اثناء تقييم الخطة او اعمال القطاعات المختلفة يبدأ في مناقشة ايجابيات الادارة وسلبياتها ويرد على ان الاشتراكية لا ينفذها الا اشتراكيون « لا يوجد هناك ادارة

اشتراكية او ادارة راسمالية ولكن يوجد ادارة ناجحة » . ثم يقول « وما هو تقييمنا للادارة الناجحة ؟ ان التقييم اساسه الانتاج وعلى ذلك لا بد وان يكون لرئيس مجلس الادارة الحرية الكاملة لتحقيق الاهداف المطلوبة . فاذا تعارضت آراء اللجان النقابية أو لجان الاتحاد الاشتراكي مع اراء الادارة فان الادارة هي التي تنفذ ما تراه . اذ لا يمكن ان تعطى مسؤولية الا بما يوازيها تماما من سلطة والا اختلت الامور» . ولذلك فانه حينما امم شركات المقاولات ترك اصحابها القدامى على رأسها يديرون ويبنون وكانت هناك في ذلك الوقت افكار تنادي بالتغيير الشامل للادارة الا انه وقف حائلا دون ذلك لاننا « ننفذ سياسة ولا نعزل افرادا بعينهم فمن يثبت منهم صلاحيته يستمر ومن يثبت فشله يذهب ويغير » . وقد استمر أغلب رؤساء هذا القطاع في اماكنهم حتى مات وزادت امكانيات شركاتهم حينما عملت في اطار القطاع العام وتحسنت الاوضاع المالية لكثير من الشركات اذ كان اغلبها غارقا في الديون وتمكنت مصر بقطاعها العام للمقاولات من بناء السد العالي ومئات المصانع والمدارس والمستشفيات وآلاف الوحدات السكنية الاقتصادية التي كانت تؤجر للشعب بأسعار رمزية كما تمكنت مصر من شق الترع والمصارف والطرق بل خاض هذا القطاع معارك حقيقية تحت نيران العدو وهو يشارك في بناء المواقع الدفاعية

وانشاء المطارات والملاجيء الخاصة بها ونقل حوائط الصواريخ الى الامام واخلاء المصانع وفكها من منطقة القناة المهددة واعادة بنائها وتركيبها في الخلف والى جانب ذلك مد هذا القطاع نشاطه في البلاد الافريقية والعربية دون قيد على نشاطه .

وثبتت اقوال عبد الناصر من انه « لا توجد ادارة اشتراكية او ادارة راسمالية ولكن توجد ادارة ناجحة» .

وبالرغم من هذه المشاركة الفريدة لم ينس البعض لعبد الناصر اقدامه على تأميم ما كان يملك وانطلق هذا البعض لينضم الى صفوف « الردة » بعد ان كانوا لا يكفون عن المدح والثناء !!!

وما دمنا في صدد الحديث عن عدم ميل عبد الناصر الى التطرف فلا بأس من سرد القصة الطريفة التالية :

اطلق احد الوزراء ــ قبيل وفاة عبد الناصر ــ لحيته . ولا يمكن لاحد ان يعترض على هذا الاجراء الشخصي « فواحد حامل ذقنه والثاني زعلان ليه » ؟!! ولكن كان هذا الوزير علاوة على ذلك قد وقع تحت تأثيرات معينة جعلته ياتي بأفعال فيها غرابة !!! فمثلا كان من يجلس الى جواره يسمعه احيانا يردد بينه وبين نفسه وهو يبتسم « عليكم السلام ورحمة الله وبركاته» . ويلتفت الذي يسمع يمينا ويسارا وخلفا باحثا عن القادم الجديد فلا يجد احدا . فيسأل الوزير على من « ترد

السلام والتحية » ؟! فيجيب الرجل في ثقة وهو يمسك بذقنه « على سيدنا الخضر عليه السلام فقد مر أمامي الان واقرأني السلام فرددت عليه » ولا يمكن لاحد ان يقطع بصدق ذلك او ينفيه الا انه يبدو أن « الريس » لم يصدق ان هذا يمكن أن يحـــــدث ... وقد يحـــدث والمناقشات دائرة في اجتماعات ضيقة عن اقتراحـــات معينة بخصوص اجلاء العدو عن اراضينا أن يبتســـم هذا الوزير وهو يقول « لم تجهدون انفسكــــــم هكذا ؟ انني موقن من انسحابهم وسيرسل الله عليهم طيـــرا ابابيل » . وبالرغم من ذلك تستمر المناقشات الحادة وترتسم الابتسامة الهازئة على شفتي الرجل « فالطير الابابيل ستقوم بالمهمة » ...

على اي حال فان « الريس » قد غضب من « لحية الوزير » لانه ربما ظن انها « ركبت » لا عن ايمان خالص لوجه الله . فأمر الوزير أن « يزيل » لحيته « والا والله سأجعل البستاني يزيلها بمقصـــه الـــذي يزيـــل بـــه الحشائش » وفعلا « خلع » الرجل لحيته ولكنه عـــاد « فركبها » مرة اخرى بعد وفاة « الريس » . وكمــــا اطلق « لحيته » اطلق « لسانه » في الرجل الذي مات بما حدث وبما لم يحدث .

ولا تسألوني لم استوزره عبد الناصر ؟ فهـــذا سؤال يضاف الى عشرات الاسئلة التي تحيرني ولا أجد لها جوابا !!! وعزائي انني لست وحدي في حيرتي !!!

ربما يكون ذلك قد تم وفاء للزمالة القديمة ... وربما يكون قد تم جمعا للشمل ... والله أعلم .

ولا احب ان اتحدث كثيرا عن النوايا ... فالنوايا علمها عند الله .

الفصل الخامس

علاقة عبد الناصر بالمجلس التشريعي

رايه في الفصل بين السلطات ـ كيفية القاء بيان الحكومة ـ ممثل للحكومة كوسيلة اتصال بين مجلس الامة ومجلس الوزراء ـ ازمات داخل المجلس ـ التمتع الكامل بالحصانة البرلمانية داخل السجن ـ قانون التفويض ـ مجموعة المنيا ـ سلبيات كان من اللازم تلافيها .

موضوع حديثنا الان على جانب كبير من الاهمية اذ سوف يكون عن علاقة جمال عبد الناصر ومجلس وزرائه بمجلس الامة . وارجو الا يثير هذا القول دهشة احد بعدما حاول البعض ان يصور الدولة ايام عبد الناصر وقد خلت من مؤسساتها الركينة وتقاليدها الاكيدة وعلاقاتها المتناسقة . كان عبد الناصر يحكم من خلال مؤسسات لها اتجاهاتها العقائدية الواضحة يحكمها « ميثاق عمل » واضح لا غموض فيه ودستور استفتى عليه الشعب ووافق عليه واقره . ومن ضمن

هذه المؤسسات مجلس الامة الذي كان يتم انتخابه انتخابا مباشرا وفقا للدستور .

وبمناسبة ما ورد عن « الاستفتاء » فلنا وقفة قصيرة هنا . لم يكن من عادة عبد الناصر ان يفرط في اجراء « الاستفتاءات » لانه كان يعتبر ذلك نوعا من انواع الدكتاتورية المقنعة ولم يكن هذا يتفق مع اسلوبه الذي كان يسمي الاسماء بأسمائها فان رأى ان صالح الدولة يحتاج الى قرار بعينه اقدم دون تردد ودون ما حاجة الى ستار يتستر من ورائه او غطاء يتدثر به حتى ولو كان القرار به تجاوزات هنا وهناك .

على اي حال .. اذا اردنا ان نتحدث عن العلاقة التي نحن بصددها علينا ان نقيمها في حدود افكاره عن « السلطات في الدولة » فلم يكن عبد الناصر يؤمن « بالفصل بين السلطات » وكان يعتبر ذلك مجرد خدعة كبرى .

ولننقل رأيه بالحرف الواحد عن « الفصل بين السلطات » من المحاضر الرسمية لمحادثات الوحدة الثلاثية بين القاهرة ودمشق وبغداد والتي تمت في ابريل — نيسان ١٩٦٣ في معرض الحديث عن السلطة في دولة الاتحاد « انا اعتبر عملية فصل السلطة خدعة كبرى لانه في الحقيقة مافيش حاجة اسمها فصل السلطات لان اللي عنده الاغلبية في البرلمان هوه اللي بياخذ السلطة التنفيذية والتشريعية . اذن القيادة السياسية اللي

عندها الاغلبية بيبقى في ايدها حاجتين : السلطة التنفيذية والسلطة التشريعية . واذا اصبح في ايدها السلطة التشريعية أصبح بالتالي في ايدها السلطة القضائية لان السلطة القضائية خاضعة للسلطة التشريعية مهما قالوا عنها انها مستقلة . وان الكلام ده اللي طلع في فرنسا ايام مونتسكيو عن فصل السلطات كلام نظري . نأخذ انجلترا كمثل فحزب المحافظين دخل الانتخابات واخذ الاغلبية يبقى البرلمان اي السلطة التشريعية في ايد مين ؟ حزب المحافظين . حزب المحافظين شكل وزارة بقت السلطة التنفيذية في ايد مين؟ حزب المحافظين . ازاي نقول هنا انه فيه فصل بين السلطات ؟ اذا فقد الاغلبية في السلطة التشريعية بيحصل له ايه ؟ لازم يسقط من السلطة التنفيذية . اذن اللي عاوز يحتفظ بالسلطة التنفيذية يجب يحتفظ بالسلطة التشريعية والتنفيذية . اذن القيادة للاثنين واحدة . فمبدأ الفصل بين القوات ده عملية في الكتب ولكنها غير موجودة واقعيا ابدا . البلد الوحيد اللي ممكن يحصل فيها هذا الموضوع هي الولايات المتحدة الامريكية ولكن مع وجود تضارب كبير في العمل وفيه احد رؤساء الولايات المتحدة سموه الرئيس فيتو لانه كان كل قرار يجي من المجلس يعمل عليه فيتو . ويرجعوا مرة اخرى للمجلس . ويحاولوا لغاية الان يتغلبوا على هذه المشكلة بأن الرئيس لا يتقدم بأي قرار الى

الكونجرس الا بعد ان يتشاور مع الحزبين » .

ولسنا هنا في مجال تقييم الاراء بقدر ما نحن في موقف نحاول ان نسجل فيه الاحداث . فقد كان هـذا هو فكره جاهر به في كل مناسبة ولعله كان واقعا تحت تاثير ما كتبه دوايت ايزنهاور رئيس الولايات المتحدة في كتابه « فرض السلام Waging Peace » حينما انطلق الرجل يشكو في مرارة من العقبات والعراقيل التي لاقاها من اعضاء الكونجرس مما يتفق تماما ووجهة نظر عبد الناصر . اذ اثار الرجل تحت وطأة تجربته المريرة مع رجال الكونجرس عدة موضوعات على جانب كبير من الاهمية .

● فمثلا تحدث عن « التعديل » الذي اصبح جزءا متمما للدستور الامريكي والذي يقضي بعدم شغل الرئيس لمنصب الرئاسة لاكثر من مرتين وطالب بتطبيق هذا التحديد على الاعضاء انفسهم حتى يقضي على ما اسماه « بالاقطاع الدستوري » وحتى يفتح المجال امام الدماء الجديدة لتسري في الجهاز التشريعي .

● ثم عاد ليطالب بتعديل الفيتو الذي يقضي بأن يكون حق التصديق او الاعتراض على القانون ككل وليس مادة مادة اذ ان هذا الوضع يجعل الرئيس « يعترض » على مواد صالحة في القانون او يوافق على مواد غير صالحة في القانون . واوضح انه من الانسب

ان يكون حق الاعتراض أو التصديق على القانون مادة مادة .

● ثم طالب بتعديل مدة خدمة اعضاء المحكمة العليا اذ لا يجوز ان تستمر مدة العضوية الى مدى الحياة اذ يهدد هذا الوضع التوازن بين السلطات . فان السلطة التشريعية ـ والتي لا ينكر ايزنهاور ان تعيين بعض اعضائها يرتكن الى اسباب سياسية ـ اذا كونت لها اتجاها معينا بطول المدة يمكنها ان تغير النظام القائم تدريجيا حسب معتقداتها علاوة على ان نظام « مدى الحياة » لا يتناسب مع التطور .

ثم يحدثنا التاريخ القريب عن كيف اقدم «ريتشارد نكسون » فيما سمي بيوم « السبت الاسود » على عزل « المدعي العام » الذي امر رئيس الولايات المتحدة بأن يسلم اشرطة التسجيل للمحكمة ايام ازمة « ووترجيت » ويحدثنا التاريخ ايضا كيف قاتل نكسون ـ وهو ممثل السلطة التنفيذية ـ بشراسة وحتى اخر دقيقة للحفاظ على منصبه ولكنه لم يستطع الصمود لحظة واحدة حينما سحبت السلطة التشريعية ثقتها به وحينئذ تقدم باستقالته المشهورة الى هنري كيسنجر وزير الخارجية كنص الدستور الامريكي .

ثم ما يريده حزب العمال او المحافظين ينفذ طالما وصل هذا الحزب أو ذاك الى السلطة ذلك لان

اقتراحات السلطة التنفيذية يسهل تحويلها الى تشريعات نافذة عن طريق الاغلبية المسيطرة لهـــا في المجالس التشريعية وكلنا يلمس الطريقة التي يتم بها حشـــد الاعضاء في جلسات التصويت لدرجة ان بعض الاعضاء المرضى يدخلون الى المجلس وهم محملـــون علـــى النقالات .

وعلى اي حال فانني اعتذر عن هذا الاستطراد على وعد بألا أعود اليه .

من التقاليد البرلمانية ان رئيس الوزراء يقـــدم برنامج حكومته الى المجلس لمناقشته قبل اقراره ويكون ذلك ايذانا بالثقة الا ان عبد الناصر بصفته رئيســا للوزراء لم يفعل ذلك ولو لمرة واحدة . ولكن كان برنامج الحكومة يقدم للمجلس بعد مناقشته في مجلس الوزراء باحدى طريقتين : اما تكليف اقدم الوزراء بتلاوة بيـان الحكومة كاملا واما يقدم كل وزير برنامج وزارته الـى المجلس . ثم يناقش البيان داخل اللجان المختصة ثـم تفتح المناقشات العامة في جلسات المجلس .

وكان رئيس المجلس في ذلك الوقت ـ اقصد بعد النكسة مباشرة وقبلها ـ هو السيد محمد انور السادات ولا اظن ان الرجل منع احدا من حقه في الكلمـــة حين طلبها ولا وضع قيودا على مناقشة اي موضوع تقـدم احد الاعضاءبرغبة لمناقشته ولا سمح بالحرية تهـدر داخل المجلس . اقول هذا ردا على ما قاله البعض عن

اهدار الحرية داخل المجلس ووضع القيود على حريـــة الكلمة والمناقشات .

وليس معنى هذا ان « الريس » لم يلق بأي بيـــان امام المجلس . فقد فعل ذلك عـــــدة مرات في بعض المناسبات الهامة بل كان عقب القاء خطابه في بعــض الاحيان يفتح باب المناقشة ولعل الجميع يعرفـــون ان الحوار والمناقشة والجدل كان هواية عبد الناصر المحببة اذا فتح موضوع للمناقشة وحواره ومجادلاته في اللجنة التنفيذية واللجنة المركزية والمؤتمرات السياسيـــة او المباحثات معروفة لا ينكرها عليه احد .

وكان الرئيس يستمع الى كل ما يجري من مناقشات داخل المجلس عن طريق خط تليفوني خاص مركب على ميكروفون حتى يوفق بين عدم حضوره الجلســـــات وبين ضرورة ان يعيش في الجو الذي تدور فيه المناقشات وحتى نوفر الجهد على من يتصيد في الماء العكر بأن يصور هذا العمل على انه من فعل « الاجهزة » و « التجسس » الى اخر هذه الكلمات التي ادخلت في قاموس « الجـــدل السياسي » لتخرجه عن موضوعيته نقول ان المناقشات في المجلس كانت علنية وحضورها مسموح للجميع ثم ان كل الرؤساء يفعلون ذلك ليمكنهم متابعة الجلســـات التي لا تمكنهم ظروفهم من حضورها .

وللمحافظة على اتصال السلطة التشريعيـــــة بالسلطة التنفيذية كان عبد الناصر يعين احد الـــوزراء

مسؤولا عن الاعمال الخاصة بمجلس الامة وكان دائما ما يقع اختياره على احد الوزراء الذين يجمعون بين منصبهم الوزاري وعضويتهم في المجلس وقد وقع اختياره على شخص ولفترة قصيرة لاقوم بهذا العمل حيث كنت احد الوزراء الذين يتشرفون بعضويتهم في المجلس وقد ظللت اتشرف بعضويتي في المجلس النيابي حتى بعد ان اعتذرت عن اشتراكي في الحكم بعد وفاة عبد الناصر بفترة قصيرة بل تم اعتقالي بواسطة اجهزة الامن فيما عرف « بحركة ١٥ مايو » ووضعت في سجن «ابو زعبل» وسجن « القلعة » بل باشرت نيابة أمن الدولة التحقيق معي وانا « متمتع » تمتعا كاملا « بالحصانة البرلمانية »!!

وكان عبد الناصر لا يوافق بعض الوزراء في مسايرتهم لاتجاهات اعضاء المجلس وطلباتهم تجنبا للمناقشة والجدل فكان يكرر في مجلس الوزراء بأنه على الوزراء الاقلاع عن ذلك والوقوف بجدية امام ما يعتقدون انه لا يتمشى مع اتجاهات الحكومة المحددة او بما يتجاوز الامكانيات المتاحة مما يصعب تنفيذه .

وقد حدث عقب النكسة ان مجلس الامة انتقل بكامل هيئته الى منزل عبد الناصر وتنازل له عن حقه الدستوري في اصدار القوانين وهو ما عرف بعد ذلك « بقانون التفويض » . وبدأ الرجل يركز في مبدىء الامر علىَ اصدار القوانين المتعلقة بالنواحي الحربية كالميزانية والتسليح والاتفاقات او الامور المتفلقة بالتجنيد

او تجاوز الاعتمادات او تجهيز الدولة للحرب أو تكوين الاحتياط الاستراتيجي من المواد ذات الحيوية الخاصة . وكلها أمور تتطلب سرعة الحسم والتنفيذ حيث كانت البلاد تخوض حرب الاستنزاف وتستعد في الوقت نفسه لحرب التحرير . الا ان بعض الوزراء كان يرى ان المصلحة تقتضي استخدام « قانون التفويض » هذا اختصارا للوقت وما لبث ان توسع البعض في استغلال الموقف واصبح لا يحال موضوعات ذات اهمية خاصة الى المجلس . وبالرغم من ذلك فان المجلس لم يتحرك لتلافي هذا الوضع الا ان عبد الناصر اثار الموضوع في احدى جلسات مجلس الوزراء واعطى تعليماته بأن تحال كافة مشروعات القوانين الى مجلس الامة بالاسلوب المعتاد « لاني في الواقع انا ما كنتش عاوز التفويض ده الا في المسائل الحربية وانا لا أقرأ ما يعرض علي ومن الاسلم ان نضحي بالسرعة في سبيل الاتقان والجودة » . وفعلا نفذ ذلك بكل دقة لدرجة انني لما طلبت اصدار قانون ببعض التعديلات في قانون المخابرات العامة رفض « الريس » التوقيع عليه وأمر باحالته الى المجلس في طريقه المعتاد .

وفي رايي ان الاجراء الذي اقدم عليه المجلس كان اجراء يتسم بالعاطفية ربما تم تحت وطأة الظروف الصعبة التي كانت تمر فيها البلاد في ذلك الوقت ولكن لا يعتبر ذلك مبررا كافيا لكي يتنازل مجلس الامة عن

سلطاته الدستورية في وقت كان يتحتم عليه التمسك بها بل التدقيق في ممارستها لا التفريط فيها وتسليمها . والشيء الغريب حقيقة ان كثيرا من الاعضاء ممن حرصوا على ان يكونوا في مقدمة «المتنازلين والمفوضين» في ذلك الوقت هاجموا عبد الناصر بعد وفاته واتهموه بأنه كان يركز السلطة في يديه ! ! ! علما بأن اي رئيس لا يمكنه ان يفعل ذلك مهما كانت شخصيته ومهما كان جبروته الا اذا حدث تنازل وتفريط كما حدث في « قانون التفويض » .

واكبر مثل على ذلك الصراع الذي حدث بين « ريتشارد نكسون » ممثلا السلطة التنفيذية وبين الكونجرس ممثلا السلطة التشريعية فقد اعتدى نكسون على سلطات الكونجرس في اكثر من مناسبة وأمر بدفع القوات الامريكية الى اختراق حدود دول ذات سيادة من وراء ظهر الكونجرس وقام بممارسة « الدبلوماسية السرية » هو ووزير خارجيته ومستشاره للامن القومي هنري كيسنجر دون علم الكونجرس وما لبث اعضاء الكونجرس ان انتهزوا فرصة « ووترجيت » وذبحوا الرئيس الذي تجاسر على الاعتداء على سلطاتهم وما لبثوا ان اصدروا قانون « سلطات الحرب War Powers عام ١٩٧٣ يحتم على الرئيس في كل الظروف « ان يتشاور مع الكونجرس قبل ان يدفع

بالقوات الامريكية الى مواقف معادية او محتمل ان تكون معادية وعقب قيامه بذلك عليه ان يخطر الكونجـرس في موعد لا يتجاوز ٤٨ ساعة واذا لم يوافق الكونجرس على ذلك يتحتم على الرئيس اعادة القوات وسحبهـــا خلال ٩٠ يوم » .

اعود فأكرر ان التفريط في الحقوق هو الذي يفتح الطريق امام اي حكم شمولي وان أؤكد بالتالي ان وجود « مراكز القوى » في اي دولة هو ضرورة من ضروريات اي حكم ديمقراطي وربما تحتاج هذه النقطة بالذات الى حديث مستفيض لا مكان له الان .

وفي فترة بعد النكسة كان هناك في واقع الحـــال مجلسان : المجلس الذي تم انتخابه قبل النكسة ثم حل بعدها والمجلس الذي استمر بعد ذلك حتى وفاة عبـــد الناصر وكان مصيره الحل قبل استكما لمدته ايضا بعد ذلك . وقد واجه المجلسان موقفين دقيقين حينما انقسمت القيادة السياسية على بعضها ايام عبد الناصر وبعـــد عبد الناصر .

فقد حدث بعد النكسة مباشرة فراغ هائل اذ كان رد الفعل عنيفا للغاية على كافة المستويات بما في ذلك مجلس الامة وانقسمت القيادة السياسية على نفسهـــا انقساما لمسه الجميع حينما رفض المشير عبد الحكيـــم عامر ـــ رحمه الله ـــ ان يمتثل لامر الرئيس بتركه قيادة القوات المسلحة واقدم « عامر » بعد ذلك على تصرفات

جامحة بأن اعتصم في منزله « بالجيزة » تحت حراسة افراد الشرطة العسكرية وحراس مدنيين استدعاهم من « المنيا » وهي المحافظة التي ينتسب اليها المشير واعتصم معه بعض خلصائه وكون عامر بذلك « جزيرة مقاومة » امام السلطة الشرعية . وبدأ عامر علاوة على ذلك يوسع من اتصالاته لدى المدنيين ومن ضمن هؤلاء اعضاء مجلس الامة وتكون في داخل المجلس ما عرف « بمجموعة المنيا » وهم اعضاء مجلس الامة من تلك المحافظة التي ينتسب اليها المشير ولم يقدر هؤلاء الظروف التي تمر بها البلاد بل انضموا من فورهم الى « ولد » بلدهم كما يقول اهل الصعيد فأحضروا له الحراس وبدأوا في توزيع المنشورات وحض الشعب على الثورة ضد النظام وواجه عبد الناصر العاصفة بثباته المعهود وتدخل رئيس المجلس انور السادات لحسم الموقف فجمد عضويتهم في المجلس وعزلهم واقترح اعتقالهم ووضعهم تحت الحراسة . وتم القضاء على الفتنة داخل المجلس كما تم القضاء على الفتنة خارجه بأحداث انتهت بانتحار المشير عامر تحت وطأة مشاعره الضاغطة لبدىء احساسه بالكارثة التي قاد اليها البلاد ومن انكشاف زواجه العرفي من احدى الممثلات والذي لم يكن معروفا من عائلته ومن كشف المؤامرة التي دبرها لقلب نظام الحكم التي تم التحقيق والفصل فيها امام محكمة الثورة التي شكلت خصيصا لذلك .

وبعد فترة تم حل هذا المجلس واجريت انتخابات جديدة لمجلس نيابي اخر .

وقد واجه هذا المجلس بدوره وفاة عبد الناصر ، وانتقال السلطة الى الرئيس الجديد ، ثم لم تمر شهور معدودة على ذلك حتى واجه انقساما اخر في القيادة السياسية في احداث مايو ١٩٧١ وقام المجلس بطرد رئيسه وفصل ستة عشر **عضوا** من **اعضائه** وبعد فترة قصيرة كان نصيب هذا المجلس الحل هو الاخر . وكما سبق وان ذكرت فقد كنت عضوا في هذا المجلس عن دائرتي الانتخابية ولم يشملني قرار الفصل هذا وبقيت « متمتعا » « بحصانتي الدبلوماسية » حتى بعد ان تم اعتقالي وبدىء التحقيق معي بواسطة نيابة امن الدولة وتفتيش منزلي ليلة بطولها بل وبقيت « متمتعا » « بحصانتي الدبلوماسية » حتى بعد ان تم التحفظ على اموالي وممتلكاتي وهي قليلة ولله الحمد ... وبعد فترة ليست بالقصيرة تنبه المجلس الى الموقف فقرر « اسقاط » « الحصانة » عني وبذلك حرمت من «التمتع» بها بعد ذلك وتكرم « المجلس » وابقى على عضويتي وانا في السجن حتى صدر قرار حله ففقدت عضويتي مع الاخرين .

وكانت الحكومة تمثل في مناقشات المجلس بعدد من اعضائها ليشتركوا في المناقشات الدائرة او ليجيبوا على طلبات الاحاطة او الاسئلة التي توجه من

الاعضاء الى الوزراء المختصين وفي بعض المواقف كان الامر يحتاج الى اتصال الوزراء برئيس الوزراء للحصول على توجيهاته قبل مناقشة موضوع معين .

ولم تكن جلسات المجلس هادئة كلها بل في بعض الاحيان تميزت بالسخونة وقد حدث على سبيل المثال ان عبد الخالق الشناوي وزير الري كان قد اصدر تعليماته الى ممثليه في المحافظات بخصوص بعض الموضوعات الفنية داخل وزارته وقد عن «لوجيه اباظة» محافظ « البحيرة » أن يحول دون تنفيذ هذه التعليمات وقام نواب المحافظة بتأييد موقف المحافظ واثاروا مناقشة الموضوع في المجلس. فهب الشناوي وهو رجل « دغري » يدافع عن موقف الوزارة وحقها ويتهم « المحافظة » بأنها تفسد عليه أموره وان هذا الحال لا يمكن السكوت عليه . وقام النواب بدورهم «بالواجب» وتصدوا للوزير « فانهم اعلم بمتطلبات محافظتهم من السلطة المركزية وكان الواجب على الوزير قبل أن يصدر تعليماته ان يستطلع رأي المحافظة حتى تكون التعليمات متمشية مع الواقع . وغضب الشناوي واعتبر أن هذا ماس بالكرامة وأنه في هذه الحالة لا يمكنه ان يستمر في منصبه وخرج غاضبا لا يلوى على شيء . وطلب مقابلة عبد الناصر فورا فقابله « أبو خالد » ودارت اتصالات تم على أثرها تسوية الموقف

وعاد الجميع الى « قواعدهم » سالمين .

ومرة اخرى ودون سابق انذار وقف « علــوي حافظ » نائب « دائرة الدرب الاحمر » وطلب الكلمــة واعطاه رئيس المجلس انور السادات الكلمة فـــورا. ووقف علوي حافظ وفي كلمات كطلقات المدفع الرشاش اخذ يكيل الاتهامات الثقيلة « لعلي صبري » اميــن الاتحاد الاشتراكي في ذلك الوقت ثم وجه بعد ذلك عددا من « الطلقات » الى منظمة الشباب ثم اتجه الى الجهاز التنفيذي يكيل له الضربات وبالرغم من ان كلمة العضو بحكم « اللائحة » لم تكن لتتجاوز خمسة عشر دقيقــة. الا ان « علوي » تجاوز الوقت المحدد وربما كـــان التجاوز في حدود ضعف الوقت وربما أكثر من ذلــك ولم يوقفه رئيس المجلس واخذ علوي « راحته » ورجع الى مكانه بعد ان كان قد افرغ كل الطلقات التي كانــت في جعبته . وانفضت « الجلسة » بعد ذلك وكـــان « علوي » ما زال في ثورته وانضم اليه آخرون . الا ان الموضوع ايضا سوي بالطرق التي تسوى بها مثل هذه الامور وذلك بالقفز فوق المشكلة حتى لا تنفجر فـــي صانعيها وربما تنفجر في غيرهم ولو بعد حين .

وفي تقديري فقد كان يمكن للمجلس ان يتحــرك بطريقة افضل لو انه تخفف من عدة قيود كانت تثقلــه وفي رأيي فانها جميعا كانت من صنع اعضائه ...

● فكان هناك قيد الجمع بين « الوظيفة » و « عضوية

المجلس » اذ كان يسمح بأن يجمع النائب بين عضويته في المجلس ووظيفته في القطاع العام وشركاته وكان هذا القيد يتمثل في التناقض بين « مسؤولية الوظيفة » و « مسؤولية النيابة » . فالوظيفة مسؤوليتها تنفيذية والنيابة مسؤوليتها تشريعية ورقابية . وبذلك كان العضو يجد نفسه في وضع لا يقوى فيه على محاسبة السلطة التنفيذية التي تتمثل في وزيره حفظا على « لقمة العيش » او المركز . كما أن الوزير كان يصعب عليه في نفس الوقت ان يجد نفسه في وضع المحاسبة من مرؤوسيه الذي لبس « قبعته » الثانية فأصبح يمثل السلطة التشريعية في المساء بعد ان كان يمثل السلطة التنفيذية في الصباح .

● كما كان هناك قيد ثقيل اخر تمثل في ولاء العضو « لحزبه الواحد » متمثلا في الاتحاد الاشتراكي. وزاد من صعوبة موقف العضو أن وجد نفسه في بعض الاحيان يحظر اجتماعين اهدافهما واحدة ... فكان عليه ان يحضر اجتماعات ما كان يسمى « بالهيئة البرلمانية » في قاعة غير قاعة المجلس ليتم الاتفاق على قرارات معينة ثم يعود ليجتمع « ملتزما » في قاعة المجلس مرة اخرى ليوافق على نفس القرارات بطريقة رسمية . فكان العضو يجد نفسه والحالة هذه يتحرك بين اقطاب ثلاثة : الحزب ، الهيئة البرلمانية ، مجلس الامة .

● ثم زاد من صعوبة التحرك اتجاه بعض الاعضاء الى الحصول على عمل اضافي الى جانب عضويتهم في المجلس . فسعى البعض للتعيين « كحراس » في « الحراسة العامة » لتقاضي مرتبات شهرية لا يؤدون في مقابلها اي عمل جدي مما جعل « الحارس العام » في ذلك الوقت يرفع لي بصفتي وزيرا للدولة مذكرة بهذا المعنى وقد أمكن تدارك الموقف بعد مقابلتي لرئيس المجلس اذ تم الاستغناء عن خدماتهم فورا بدافع الحفاظ على كرامة « النيابة » . وكان القليلون منهم قد استغلوا سلطاتهم بما يعاقب عليه القانون الا ان مساءلتهم لم تتم لتغيير الاوضاع تغيرا كليا اثر وفاة عبد الناصر .

واتجه البعض لمحاولة الحصول على « شقق الحراسة » او « شركات التأمين ».وحينما انضم الى موكب « المطالبين » أعداد كبيرة تم التصدي لهذا التيار برفع اقتراح وافق عليه « عبد الناصر » بالغاء نظام « التخصيص » واستبداله بنظام « البيع في المزاد العلني » .

ومن الغريب أن بعضا من هؤلاء وقف ليهاجم « الانحرافات » في حماس وقدرة يستوجبان الاعجاب والدهشة والاسف !!! واصبح الشرفاء الابرياء في موقف الاتهام واصبح المتهمون في مقاعد الادعاء .

وقد تحدث الكثيرون في تقييم الاوضاع « البرلمانية » في تلك الفترة واوردوا كلاما كثيرا عن

عدم ممارسة الحرية داخل المجلس . وفي رأيـــــي أن كثيرا مما قيل اتسم بالسطحية التي لا تمس الجوهـــر وتعمد ان يسير في الدروب الضيقة لتجنب السير فـــي الطرق الفسيحة الواضحة .

فلا يمكن ممارسة الحرية لمن كبل يديه طائعـــــا مختارا بل سعى الى ذلك باصرار قبل ان يضع نفســـه في وضع الممارسة . فلا بد أولا أن يتخفف الانسان مما يثقل السير ويعوق الحركة حتى ولو كان هذا الذي يثقله ولاؤه لحزبه أو ولاؤه لذاته فان الـــــولاء للوطن يجب الولاءين او يجب ان يكون الامر كذلك .

حينئذ يشعر الانسان في اي موُقع بالقدرة علـــــى ممارسة حقوقه ، وبالقوة التي تحفزه على عدم التنازل عن سلطاته .

وبلادنا في حاجة كبيرة الى مثل هؤلاء . او هكذا اظن وأعتقد .

البـــاب الثانـــي

عبد الناصر واتخاذ القرار

الفصل السادس : مفاتيح شخصية عبد الناصر
الفصل السابع : الظروف والعوامل

الفصل السادس

مفاتيح شخصية عبد الناصر

مصريته ــ عروبته ــ عبد الناصر ليس ملاكا ــ الاستقامة ــ الفرق بين الثورة والانقلاب ــ المعرفة والاطلاع ــ عسكري يصل الى طريقه من اقصر طريق.

« عبد الناصر واتخاذ القرار » موضوع كبير اختلفت فيه الاراء ...

قد يراه البعض انه صانع للعديد من القرارات التاريخية التي غيرت وجه « مصر » بل غيرت كل ما كان يجري في المنطقة من احداث . وقد يراه البعض الاخر في صورة من يتخذ قراره كنوع من « ردود الفعل » اكثر منها قرارات نابعة من الذات تعبر عن الفعل وليس نتيجة لانفعال عاطفي . وقد يراه آخرون في

صورة صاحب القرار المفرد الذي لا يستشير احـــدا او يستمع الى احد .

وهذا الاختلاف البعيد أمر طبيعي بالنسبة للعمالقة ... البعض يراهم في صورة الملائكة والبعض الاخــر يراهم في صورة الشياطين ... وكان عبد الناصر عملاقا فهذا امر لا شك فيه .

ولعلنا نكون بهذه المقدمة قد وضعنا « العربــة » أمام « الحصان » فما كان يجب ان يكون في «الخاتمة» وضعناه في « المقدمة » . ولكن لا بأس في ذلك خاصة اثناء معالجة موضوع متشابك مثل هذا الموضوع الــذي يتعلق باصدار القرار .

وقد اعجبني ما كتبه « تيودور سورنسون » احد معاوني الرئيس « جون كينيدي » في كتابه « اتخـــاذ القرارات في البيت الابيض » وهـــو مجموعة مــن المحاضرات التي القاها في جامعة « كولومبيا » قبـــل ذلك اذ كتب يقول «.قد ينشد الرئيســس من الكونجرس المشورة وقد ينشدها من وزرائه او مستشاريه بل قـــد يطلب آراء الصحافة او الاحزاب او قـــد يستطلع اتجاهات الراي العام ولكن مهما تعددت مصادر المشورة فانه عندما تحين اللحظة الحاسمة ... لحظة مواجهـــة الحقيقة لا يكون هناك مجال لتعدد الاراء ولا يبقى سوى شخص واحد يتخذ القرار بمفرده.ويتحمل مسؤوليته . ذلك الشخص هو رئيس الولايات المتحدة الاميركية » .

ويقول جون كينيدي الرئيس السابق للولايـــات المتحدة « ان شعور الوحدة الذي يخيم دائما على حياة الرئيس هو احد جانبي الصورة لان الرئيس هو في كل وقت اكثر الناس استقبالا للاراء والمشورات المتعارضة والافكار الطنانة على ان هذه الاراء والنصائح ضرورية لعملية اتخاذ القرار فهي لا تعطي الرئيس ما يحتاج اليه من معلومات فحسب وانما تضع امامه ايضا احتمالات وحدود القرار المطلوب ومن ثم فان الرئيس الحكيـــــم يستمد قوته وافكاره من الشعب ومع ذلك فهو في نهاية الامر يقف وحده في انتظار القرار الذي يتحتم عليـــــه اتخاذه » .

ويقول الرئيس اندرو جاكسون « لقد عــــــودت نفسي على تقبل آراء الاخرين بالاحترام ولكنني مسؤول دائما عن اتخاذ قراراتي بنفسي » .

ونختتم هذه الاقوال بقول الرئيس هارونج « انني اصغي الى احد الجانبين فأجده على صواب ثم اصغي الى الجانب الاخر فأجده لا يقل صوابا عن سابقه فأجد نفسي حيث بدأت . . . يا الهي ما اسوأه من منصب » .

واتخاذ القرار يكاد ان يكون هو الواجب اليومي للرئيس فوسط تصارع الارادات فوق مسرح الاحداث حيث تتدخل المفاجئات بما ليس في الحسبان وحيـــــث تنتشر السحب التي تغلف الحقيقة وحيث تتغير الاحداث تبعا لعوامل غير متوقعة عليه أن يتخذ قراره الذي لا بد

وان يتسم بالحكمة والوضوح والحسمواضعا في اعتباره ما لديه من قوة حقيقية فالسياسة كالسوق التجارية فعلى قدر ما في جيبك من نقود يمكنك ان تشتري . اذن ان تعرف القيمة الحقيقية لما في جيبك شيء هام ، وأن تعرف مقدار ما يمكنك ان تشتر به شيء أهم والا كسب التاجر الصفقة ... قد يعطيك اقل مما تستحق ، وقد يعطيك بضاعة فاسدة ، او قد يأخذ كل ما في جيبك دون ان يعطيك شيئا .

ولا اعتقد ان هذه المقدمة تعتبر كافية لتهيئة المناخ الذي يجعلنا نطمئن الى الدخول في الموضوع بمفهوم مشترك في الاسس على اقل تقدير . اذ حتى يمكننا ان نقيم « القرار » ـ اقصد اي قرار ـ علينا ان نتعرف على شخصية صانع القرار وهو عبد الناصر وعلى الظروف التي كانت سائدة وقت اتخاذ القرار . فنحن نتحدث مثلا في جملة واحدة عن عبور الجيوش الفرنسية جبال الالب بقيادة « نابليون بونابرت » ولكن باستعراض الظروف السائدة في ذلك الوقت ـ من شتاء قارص وثلوج تغطي كل شيء وجيوش الاباطرة تحتشد على اجناب قواته للقضاء عليه وافتقار جيوشه الى الملبس والمأكل ـ لعرفنا ان « بونابرت » واحد كان يمكنه أن يتخذ قراره وينفذه ولذلك أفسح له التاريخ مكانه اللائق به رغما عن هزيمته وسط ثلوج روسيا والتي اجبرته على الانسحاب منهزما وهو يدق ابواب « موسكو » .

فالدولة ليست مجرد هياكل تنظيمية يتربع الرئيس على قمتها لانه لو صح ذلك لاصبح الرئيس مجرد دمية تحركها الاجهزة كيف تشاء ... فالحكومات وانظمة الحكم ليست كيانا يضم مجموعة من القوى الصماء ولكنها مجموعة من البشر وهي بذلك ليست مجرد آلة تدور بل هي في حقيقتها كائن حي يتحرك . والحركة لا بد وان تتجه الى هدف معين والرئيس هو الذي يوجه ويقود فيحفظ للحركة اتزانها وتناسقها . فالحكومات والحالة هذه من صنع الساسة وليس العكس والرئيس هو الذي يقود الراي العام ولا يسمح للرأي العام ان يقوده ويحركه .

« فشارل ديجول » هو الذي اسقط الجمهورية الرابعة ليعطي المستعمرات الفرنسية حق تقرير المصير في ظل « الجمهورية الخامسة » . وبالرغم من ان كلا من « لينين » و « ستالين » يدينان بنظريات انجلز وماركس الا ان هناك تباينا واختلافا واضحا في اتجاهات الثورة البلشفية ايام الرجلين ...

ولذلك فان الدول تسعى دائما الى جمع المعلومات عن الرؤساء الحاليين والمتوقعين لمعرفة مع من يكون التعامل ... هل التعامل مع حكيم يزن أموره فيعطي بقدر ما يأخذ ؟! ام مع مجنون يحب العظمة ولا يرى الا شخصه وذاته ؟! ام مع متمسك بالحكم عزل نفسه عن شعبه فيسهل ابتزازه ؟! ام مع من يعرف قدره وسط

المساومات الدائرة فيعمل حسابه ؟!

اذن فحتى نزيد الامور وضوحا علينا ان نتحدث عن مفاتيح شخصية عبد الناصر .

● كان عبد الناصر « مصريا » لحما ودما او كما نقول « أبا عن جد » . وبذلك فانه كان متعصبا لمصريته الى اقصى حدود. التعصب فنجده حتى بعد أن وصل الى قمة السلطة لا يميل الا الى اللبس المصري والاكلة المصرية والعادات المصرية فلم يحاول ابدا ان يتشبه بالاجانب في شيء ... السيجارة هي هوايته المفضلة قبل ان يقلع عن التدخين فلم يمارس تدخين « السيجار » او « البايب » ... سعادته الغامرةِ حينما حلت السلعة المصرية محل السلع الاجنبية التي كانت تملأ الشوارع والمحلات . صراحته المتناهية في التعامل فالابيض ابيض والاسود أسود في حين ان كثيرا من المواقف تتطلب ان يكون اللون « بين بين » ... ندرة سفره الى الخارج فلم يكن يستريح الا في بيته .

● وكان « عبد الناصر » يعتز بعروبته ... كان من اكثر زملائه قناعة بالعروبة وأن مصر ما هي الا جزء من الوطن العربي الكبير . فوقف وحده يحارب معركة حلف بغداد ليخرج المشرق العربي من مناطق النفوذ . والقى بثقله خلف ثورة الجزائر حتى وقعت اتفاقية « ايفيان » ، ووقف الى جانب الملك محمد الخامس وهو في المنفى حتى عاد ثانية يتربع على عرش المغرب

المستقل ، ووافق على الغاء الحكم الثنائي في السودان حتى يتيسر له حق تقرير المصير ، ثم القى بثقله خلف ثورة اليمن حتى يتخلص من « الامامة » الفاسدة ، ثم وقف خلف ثورة « عدن » حتى حصلت على استقلالها ، ثم اهم من كل ذلك حقق الوحدة العربية مجسمة في « الجمهورية العربية المتحدة » ...

وكل موقف من المواقف السابقة كان يحتاج الى قرار ... وربما حدثت انتكاسة هنا او فشل هناك ولكن عروبته كانت دائما ما تحول دون أن « يكفر » بما يحدث او يرتد عما يؤمن به ...

● وكان الرجل « بشرا » كالملايين ... له حسناته وله سيئاته ... له ايجابياته وله سلبياته ... يحب ويكره ، يحنو ويقسو ، يمرض ويعافى ، يخطىء ويصيب ، ينجح ويفشل ، يصادق ويعادي .

وتقييم قرارات عبد الناصر على غير هذا الاساس فيه ظلم للرجل وللتاريخ .

فمن صوروا « عبد الناصر » على انه « شيطان » تجاوزوا الحقيقة اذ تركوا لاحقادهم الشخصية العنان فشوهوا التاريخ واساءوا الى بلادهم خالطين بين دوافعهم الشخصية ودوافعه العامة ... وهذا امر لا يجوز .

ومن صوروه على انه « ملاك » لا يخطىء غلبت عليهم عوامل العاطفة والحماس وهذه مقاييس لا يعتد بها

في وزن الامور وتقييمها ذلك أن اي رئيس يجتاز فـــي رئاسته ساحات الانتصار والفشل ومجالات الصواب والخطأ وتماما كالرسم البياني تكـــون الصورة ... ارتفاع وانخفاض . وهذا شأن « البشر » كما قلنا لان « الملائكة » لا يعيشون على ظهر الكوكب الذي نحيـا عليه .

كان عبد الناصر وهو يصنع قراره انسانـــا اولا واخرا بما له او بما عليه .

● وعرف الرجل بالاستقامة فلم يجسر احد أن يتحدث عن « نزوة » او « سقطة » . كان مستقيما في شبابه الامر الذي يعرفه عنه كل اصدقائه وزملائه فلـم يكن له زلة واحدة مما يقع فيها الشباب عادة . وظلـت هذه الاستقامة تلازمه الى آخر يوم في حياته . فلم تكن له جولات او صولات في « الشوارع الخلفية » كبعض من يصلون الى السلطة . هذه الاستقامة مكنته قبـل الثورة من متابعة الحياة السياسية في مصر متابعـــة دقيقة عن طريق اتصاله بمعظم الاحزاب والجمعيـات القائمة ، كما مكنه بعد الثورة من ان يهب كل دقيقة في حياته الى أمته مكبا على دراسة المشاكل المتلاحقـة محاولا اصلاحها ... هذه الاستقامة انعكسـت على قراراته كلها فلم يتخذ قرارا واحدا فيه كذب او نفـاق

« فنحن نصادق من يصادقنا ونعادي من يعادينا » . كان

ربما يصدر قرارا خاطئا ولكنه كان دائما يصدر القرار الصادق اذ لا يضع في اعتباره وهو يصدر القـــرار الا المصلحة العامة في ضوء ما يراه صحيحا . فكان قـــراره صريحا واضحا حتى ولو كان به تجاوزات فكان مثلا لا يعطي باليد اليمنى شيئا ليسحبه باليد اليسرى ، ولا كان يتستر وراء ساتر يغلف به قراره او يبرره .

● ونشأة عبد الناصر مفتاح هام لشخصيتـــه ومعتقداته ... فقد نشأ الرجل في بيئة فقيرة تكاد لا تملك شيئا . وذاق طعم المعاناة كالملايين الذين ينتمون الى الطبقة الوسطى التي نشأ فيها . ربما عانى من عدم توفر تكاليف الدراسة ولم يكن التعليم بالمجان بعد ... وربما عانى من عدم توفر تكاليف الحياة الاخرى ... وربما عانى من غياب السند القوي الذي يدفعه فـــي دروب الحياة ... ولم يكن غريبا على شخص عانى ما عاناه ان يقف دائما الى جانب الكادحين من العمـــال والفلاحين والموظفين ... كان يشعر باحساس هؤلاء وهو ما عبر عنه « باحساس الطليعة الثورية بمشاعـــر الجماهير واذا فقدت هذه الطليعة الثورية هذا الاحساس لحق لطليعة ثورية اخرى ان تقفز الى السلطة لتحقـــق آمال الجماهير وترفع عنها اسباب المعاناة » . لم يكن في قراراته تلك يشعر ابدا بحقد على طبقة بعينها بـــل نجده مثلا في قرارات الاصلاح الزراعي يزيد من عـــدد الملاك ويحاول التقريب بين الطبقات ، وفي قراراتـــه

الخاصة بالحراسة كان يهدف في معظمها الى تمصير الشركات والبنوك بعد ان كانت في يد الاجانب والى القضاء على الاقطاع بكافة انواعه والى انهاء سيطرة راس المال والى الحد من نشاط المجرمين وتجار المخدرات . صحيح حدثت اخطاء في التنفيذ قد يصل الى حد وقوع التجاوزات ولكن الامر الذي يمكن ان نقطع به انه لم يصدر هذا بدافع من الحقد الطبقي او الانتقام. وفي قراراته الخاصة بمجانية التعليم كان يقف الىجانب العاجزين عن توفير تكاليف التعليم الباهظة . وفي قراراته الخاصة بالعمال كان ينحاز الى طبقات العمال ليمنع عنهم استغلال راس المال .

● ولم ينس عبد الناصر لحظة واحدة قبل الثورة انه يجهز ويخطط لثورة كما لم ينس ابدا بعد ان وصل الى السلطة انه قائد لثورة فهو لم يورث حكما ولم يخلف غيره في سلطة بل هو الذي سعى ودبر وقاد زملاءه ليسقط عرش مصر ويغير نظام حكمها . ولم يكن الاستيلاء على السلطة في حد ذاته غرضا يسعى اليه بل كان مجرد وسيلة لتحقيق اهداف تطلع ان يحققها لصالح القاعدة العريضة للجماهير الكادحة . لانه لو كان قد اكتفى بالوصول الى السلطة لكان ذلك مجرد انقلاب وحتى نرى انعكاس ثوريته على قدراته لا بد ان نحدد الخلافات بين الثورة والانقلاب :

★ فالثورة تقوم ضد افكار ومعتقدات لهدمها من

اساسها ثم تغييرها اما الانقلاب فيقوم ضد افراد . . . البعض ذهب والبعض جاء ثم تسير الامور كما هي حتى يأتي آخرون .

★ والثورة لا تعترف بالامر الواقع بل تطلق ريـــاح التغيير لتدك ما هو كائن حتى تقيم على انفاقه بنيانـــــا جديدا مختلفا تماما عما كان . . . أما الانقلاب فيكتفـــي باجراءات اصلاحية هنا وهناك لا تعالج الاساس المريض بقدر ما تضع « رتوشا » لتجميل السطح .

★ والثورة بذلك تكون لصالح الجماهير الكادحة وما دام الامر كذلك فانها تصطدم بالضرورة مع طبقات خاصة مستغلة اما الانقلاب فانه يحاول ان يتقرب الى هؤلاء وهؤلاء ويكتفي بالوعود الرنانة يحاول بها ان ينقل الجماهير من حاضرهم الى مستقبلهم خلال دروب مـــن الاحلام والوعود وهذا امر لا يمكن ان يدوم .

★ ويكون للثورة على هذا الاساس لون خاصـــس بها فلا تكون كالماء لا لون له ولا رائحة وبالتالي يكون لها اعداء واصدقاء بعكس الانقلاب الذي يتلون كالحرباء لكل ظرف لونه ولا عجب بعد ذلك أن الانقلاب يخلــط دائما بين الاصدقاء والاعداء فيضل الطريق ويقع فريسة بين مخالب الاعداء الذين يتوهم انهم اصدقاء ، ويبتعد عن الاصدقاء الذين يتخيل انهم اعداء .

★ والثورة حركة تغيير مستمرة لا تقف عند حـــد فهي كالماء المتدفق يسري هنا وهناك اما الانقلاب فهو

مجرد رعشة متخاذلة وان حمل أسم الثورة وهو كمجرى ماء قد يجف بعض الوقت وقد تجري فيه بعض المياه احيانا لتسكن وتتوقف ثم تتحول الى ماء آسن رائحته تزكم الانوف .

★ والثورة دائما معطاءة اخاذة فهي تأخذ من الغير وتعطيه فلا تتقاعس عن مساعدة غيرها من ثورات لانها ترى في ذلك تحقيقا لامنها وتوطيدا لمركزها ورصيدا لها تستخدمه وقت الشدة والعسر . اما الانقلاب فربما يرتعش في منتصف الطريق فيبيع الصديق ثم ما يلبث ان يتراجع مسرعا الى عقر داره وينتظر حتى يقضي الله أمرا كان مفعولا .

★ والثورة طريق شاق صعب تحفه المتاعب والاخطار اما الانقلاب فشيء يجيء ويذهب دون ان يشعر به احد . وبذلك تكون السلطة في الثورة عبئا ومسؤولية بعكس السلطة في الانقلاب فهي مجرد غنم ورفاهية .

● ثم كان عبد الناصر من العسكريين المقاتلين ذوي الاطلاع الواسع وكان هذا يميزه بالجسارة والحسم والجلد في العمل والتقشف في المعيشة ومحاولة الوصول الى الغرض من اقصر طريق وعدم خشيته من خوض المعارك المتتالية والقتال من اجل ما يريد والاصرار على تحقيق الهدف ثم ميله دائما الى المفاجأة والى جانب ذلك فانه كان يميل الى جمع المعلومات قبل اصدار

القرار ثم ربما يضيق صدره من اي اجراء يعترضه عند التنفيذ . كان يحب الطاعة الكاملة بالرغم من انه كان دائما يقول « لو الواحد أمر الجنود في وحدة عسكرية ان يدوروا الى اليمين فان الجميع يتجهون الى اليمين دون استثناء ولكن لو الواحد وقف في ميدان الاوبرا وأمر الناس بالاتجاه الى اليمين فالبعض يفعل ذلك والبعض الاخر قد يتجه الى اليسار او الخلف » .

هذه المفاتيح التي ذكرتها تكون شخصية صاحب القرار ...

فمصريته الممتزجة بعروبته جعلته يتخذ اخطر القرارات التي غيرت مسيرة الامة العربية فعاش من اجل ذلك ومات وهو يفعل ذلك ولف جسده بالعلم العربي ثلاثي الالوان ذي النجمتين .

واستقامته التي اشتهر بها جعلته لا يحني راسه امام احد ويطالب الجميع بذلك قائلا « ارفع رأسك يا اخي » .

ومعرفته الواسعة واطلاعه العميق على ما يدور في العالم وبالعالم اكسبته ثقة كبيرة في نفسه وجعلته عملاقا ضخما اثار احقاد الكثيرين وغيرة العديدين .

وشجاعته التي فطر عليها جعلته امام الجماهير العربية كأحد فرسان الماضي جاءهم على غير موعد وربما قبل الاوان .

وثوريته المستمرة جعلته يخوض المعارك العديدة ربما بأكثر من موارده المتاحة والبت عليه القوى المضادة ليحولوا بينه وبين اماله التي اسموها اطماعا وبين احلامه التي اسموها تسلطا .

وعسكريته التي عاش فيها احلى ايامه جعلته ربما يضيق بالجدل الذي يعرقل العمل والحوار الذي لا ينتهي الى قرار .

في ضوء هذه الشخصية التي ربما اصبحت واضحة تماما امام « رسامي الكاريكاتير » علينا ان نقيم قراراته .

ولكن في اعتقادي ان هذا لا يكفي .

فالشخصية هي احد جوانب الصورة ولكن الجانب الاخر اهم واكثر تأثيرا وهو الجانب الذي يستعيد الظروف التي عاش فيها صاحب القرار ...

فصاحب القرار دائما لا يملك حريته الكاملة يفعل ما يشاء ... فهناك ارادات اخرى أمامه وظروف ضاغطة تتفاعل مع رغباته وأحلامه .

ولا يمكن ان يكون الحكم على « قرار » الا اذا قيم في اطار الظروف التي اتخذ فيها اذ ربما يكون قرار الامس غير صالح لاحداث اليوم او الغد فالظروف تتغير وتتبدل ولا بد وان يكون القرار مطابقا للظروف التي تواجهه والا اصبح كالسهم الطائش الذي ينطلق في الفضاء دون هدف او غاية .

الفصل السابع

الظـروف والعوامـل

التحالف الرهيب بين الاستعمار والرجعيـة ــ فلسطين ضرورة لامـن مصر ــ الاستعمار يحـاول التطويـق ــ المجتمع المصري يقع تحت ضغطيـن رئيسيين ــ الخلل في الملكيـة والخلل في التمثيـل النيابي ــ علاقات غير متوازنة بين طبقات المجتمع ــ الجيش لا يملك السلاح والعتاد ــ الضغوط الخارجية والداخلية ــ النكسة ..

تحدثنا حتى الان عن « مفاتيح شخصية عبـد الناصر » في معرض حديثنا عن « عبد الناصر واتخاذ القرار . » وبذلك نكون قد استكملنا أحد وجهـي الموضوع . وبقي ان نتحدث عن الظروف التي عاش

فيها وقت اصداره لقراراته حتى نجلو الوجه الاخر . اذ لا يمكن تقييم اي قرار الا بوضعه داخل اطار الظروف التي اتخذ لمواجهتها او التي عاش فيها فأثرت عليه وتأثر بها .

فالقرار لم يكن في يوم من الايام مجرد عملية حسابية صماء ولكنه اجراء معقد أشد التعقيد . وتفسير ذلك ان اتخاذ القرار اجراء يمر بمراحل كثيرة متتابعة ومتداخلة أكثرها تحدث في المحيط المعنوي للمشكلة واقلها يجري في المحيط المادي لها . . .

والجانب المادي من السهل تقديره وتحديده بدقة وربما يحتاج الى عمليات حسابية دقيقة للوصول الى نتيجة اقرب ما يمكن للصواب . ولكن الجانب المعنوي يضيف الى مشكلة اتخاذ القرار عاملين هامين : الاول منهما يتعلق بالمخاطرة والعامل الثاني هو التكهن والاستنتاج .

والمخاطرة لازمة من لوازم القرار ولا بد من التفريق بينها وبين المقامرة فللمخاطرة اسسها وقواعدها التي ربما تصيب وربما تخطىء أما المقامرة فهي مجرد ضربة حظ تتعلق بالقدر ولا تبنى على أساس من العقل والتدبر .

أما التكهن فيحتاج الى المعرفة والعلم والمعلومات الى جانب القدرة على الخيال والتصور فيكون بذلك قادرا على اختراق الضباب الذي يغلف المواقف نتيجة

للارادات المتصارعة التي لا يمكن تحديد اتجاهاتها تحديدا قاطعا والمعلومات المتضاربة التي تختلط فيها الحقيقة بالزيف ويمتزج فيها الوضوح بالغموض .

ولنضرب مثلا واحدا نقرب به ما نقول الى الاذهان ...

فاذا كان الجانب المضاد مثلا لديه ٤ دبابات فالجانب المادي لمواجهة ذلك يبنى على أساس أن التعامل سيكون فعلا مع الدبابات الاربعة ولكن الجانب المعنوي يمكن ان يجعل التعامل مع دبابتين وربما ثمانية !!! اذ سوف يدخل في العملية الحسابية عوامل اخرى غير ملموسة مثل جودة الدبابة من الناحية الفنية ما مدى المدفع ، القدرة على المناورة ، السرعة ، درجة الرؤية المتيسرة في الضباب أو الليل نتيجة لاستخدام الاشعة تحت الحمراء مثلا ، درجة تدريب الافراد ، مهارة القيادة ، الروح المعنوية ، الايمان بالغرض ، القدرة على التصرف أمام المواقف المفاجئة ... الخ ... هذه العوامل غير محسوسة ولكنها تؤثر تماما عند اتخاذ القرار . اذ لو أن صاحب القرار تناساها فانه سيتعامل في واقع الحال مع ظروف اخرى لم يضعها في حسبانه ويصبح قراره بذلك لا يتعامل مع واقع ويكون أقرب الى السهم الطائش لا يصيب هدفا ولا يحقق غرضا .

وبعد هذه المقدمة السريعة يمكن أن نتحدث عن

الظروف التـــي عاش فيها عبـــد الناصر وهو يتخـــذ قراراته ...

● كان المناخ الذي ولدت فيه ثورة يوليو ــ تموز ١٩٥٢ يتميز بالتحالف الرهيب بين الرجعية والاستعمار واستمر الرجل الى اخر يوم في حياته يخوض معركة ضارية ضد ذلك الحلف الذي شكل قوة ضاغطـــــة مستمرة أثرت على قراراته وأجبرته على أن يخـــوض معركة تلو الاخرى دون أن تترك له فرصة لالتقـــــاط الانفاس ...

ويقول بعض « السذج » انه كان على « عبـــد الناصر » تجنب المواجهة ومفاداتها ...

ولا أظن أن الرجل كان يطلب غير ذلك اذ لـــم يكن يريد حربا ولا كان يسعى الى قتال . بل حـــاول جهده أن يتفاهم بالحسنى دون جدوى وأمضى السنوات الاولى للثورة في محاولاته تلك فكان يخرج من طريـــق مغلق الى طريق مسدود دون أن يجد صدى لمحاولاته تلـــــــك .

كان البديـــل لذلك « الاحتواء » والدخول فـــي « مناطق النفـــوذ » وهذا أمر لم يقبله .

وهنا اختلطت شخصيته « الثورية » « بالظروف الضـاغطة » وتفاعلت معها ورفضتها واصبح من المحتم عليه أن يتحرك ليكسر الطوق قبل أن يطبق عليه . اذ أن أخطر ما يصيب الثورة هو حالة الجمود التي تدفع

اليها أو حالة الاستسلام التي تسحب الى الوقوع في حبائلهـــا .

والشيء الغريب حقيقة أن كثيرا من الاقـــلام الناقدة تحدثت كثيرا تلوم عبد الناصر على محاولاته تلك وربما تجاوزت اللوم الى خد الاتهام . ولكنها لـــم تحاول ولو لمرة واحدة أن تتحدث عن محاولات الرجعية والاستعمار مع الثورة وقائدها من يوم أن ولدت حتى تصيدتها في يونيو — حزيران ١٩٦٧ . ولم تحـــاول ولو لمرة واحدة أن تقترح البديل الذي كان على عبـــد الناصر اتباعه والسير فيه .

● ثم وجد « عبد الناصر » ضمن ما وجد مـــن « مخلفات » « مشكلة فلسطين » . فالانظمة العربية قبل ثورة يوليو — تموز ١٩٥٢ هي المسؤولة عن خلق اسرائيل « الدولة » بعد أن فشلت في مقاومة اسرائيل « الفكرة أو الحلم » . فعبد الناصر لم يكن مسؤولا عن خلق المشكلة بل كانت المشكلة احدى الاسباب التي دفعته الى الثورة . وعلى أي حال فلن نستطرد أكثر من ذلك اذ لسنا في موقف نحدد فيه المسؤوليات ثـــم لم تعد هناك فائدة من البكاء على اللبن المسكوب .

وكان المؤمل أن يتعلم حكام العرب من درس ١٩٤٨ ويحاولوا ولو لمرة واحدة أن يتحدوا أمام الخطر الداهم الذي أصبح جاثما وسط الدار ولكن الكثيرين منهم رأوا

ان الثورة أخطر عليهم وأكثر تهديدا لبقائهم فقاموا يحاربونها بكل ما وهبهم الله من قوة وثروة .

ويقول « السذج » و « المغرضون » الذين يقيمون الاحداث الان أنه كان على عبد الناصر أن يترك فلسطين في ذمة التاريخ لنتفرغ لاحوالنا ومشاكلنا وانه كان على الرجل أن يقفل عليه حدوده وبذلك يتفادى الصدام مع اسرائيل ويجنب مصر تلك الحروب التي خاضتها .

ولكن . . . هل تحرشت مصر باسرائيل حينما قامت بغارتها الوحشية في غزة واتبعتها بغاراتها في مناطق عديدة بعد ذلك ؟ هل تحرشت مصر باسرائيل حينما انضمت الاخيرة الى بريطانيا وفرنسا في العدوان الثلاثي على مصر عام ١٩٥٦ ؟

لا نقول ذلك لتبرير حروب عبد الناصر فهي حروب عادلة لا تحتاج الى تبرير اذ خاضها لكي تدفع العدوان أو هكذا كان يحاول ويتمنى . ذلك لان أبسط قواعد الامن القومي تشير الى أن « فلسطين » هي من ضرورات «الامن المصري» منذ عصور الفراعنة . ووجود دولة معادية هناك فيه تهديد قاتل « لامن مصر » .

اذن فسلامة فلسطين من ضروريات الامن المصري اذا صح هذا التعبير اذ لا يوجد ما يسمى « بالامن المصري » المنفرد عن « الامن العربي » فلا امن لمصر دون العرب ولا أمن للعرب دون مصر .

● وكان الاستعمار يربض في كل مكن من أركان

العالم العربي من المحيط الاطلسي الى الخليج العربي لتنفيذ استراتيجية « التطويق » عن طريق اقامة القواعد العسكرية على الساحة كلها ... قاعدة قناة السويس ، عدن ، منطقة الخليج ، الظهران ، الحبانية، الشعيبة ، هويلس ، بنزرت ، الجزائر ، المغرب ... كانت القواعد كالاخطبوط الذي يخنق كل حركة وطنية . واعتبر عبد الناصر العربي — عن حق — أن معركة استقلال مصر هي جزء من معركة الاستقلال العربي فالمعركة واحدة متصلة اذ أن الامن واحد والمستقبل واحد والعدو واحد والمصير واحد . هكذا تقول لنا الخريطة وهكذا يقول لنا الواقع وهكذا يقول لنا الدين « ان القدر لا يهزل وليست هناك أحداث من صنع الصدفة ولا وجود يصنعه الهباء . ولن نستطيع أن ننظر الى خريطة العالم نظرة بلهاء لا ندرك بها مكاننا على هذه الخريطة ودورنا بحكم هذا المكان ... ايمكن أن نتجاهل أن هناك دائرة عربية تحيط بنا وان هذه الدائرة منا ونحن منها امتزج تاريخنا بتاريخها وارتبطت مصالحنا بمصالحها حقيقة وفعلا لا مجرد كلام ... واستمر عبد الناصر يتحدث في « فلسفة الثورة » عن الدائرة الافريقية والدائرة الاسلاميةحديثا اخذا في الاعتبار مركز مصر على خريطة العالم . ولست ادري كيف يمكن لبلد من البلدان كتب عليه ان يكون في هذا الموقع الحيوي أن يقفل على نفسه ؟ وكيف يمكن لمصر أن تقفل عيونها حتى لا ترى

ما حولها ؟ أو تجمد أحاسيسها حتى لا تحس الاخطـــار التي تحدق بها ؟ بل لو اننا سلمنا جدلا أن مصر اقفلت عيونها وسدت آذانها وجمدت أحاسيسها فهل هذا يحول بين المتربصين وبين أن يقرعوا الابواب ويقتحموا النوافذ؟ ولو سلمنا جدلا انه بامكاننا أن ننتقص من قدرنا ومكاننا فكيف نضمن أن غيرنا سيشاركنا هذا التقييم في سبيـــل سعيه لتحقيق امنه ومصالحه ؟ اننا جزء من منطقـــة نعيش فيها ... والمنطقة جزء من عالم متسع تدور فيه الاحداث وتتصارع فيه الارادات ... والسياسة أخذ وعطاء ولذلك نجد أن الرجل أعطى في سخاء لثـــــورة الجزائر وللمغرب ولليسار اليمني والجنوب العربي ... فأزيلت القواعد وتحررت الارادات ولذلك ضرب عبــد الناصر عام ١٩٥٦ لان « القضاء على ثورة الجزائـــر لن يتم الا عن طريق القاهرة » وعادوا فوجهوا اليـــــه الطعنة النجلاء عام ١٩٦٧ لان « القضاء على الثـــورة العربية لن يتم الا عن طريق القاهرة أيضا » .

وبالرغم من ذلك فان البعض يوجه اليه اللـــوم الثقيل بعد أن مات وكأن ما لاقاه من لوم ومقاومة قبـــل أن يموت لم يكن فيه الكفاية . فمن قاومه قبل أن يموت ومن شرحه بعد أن مات كلاهما كان يطلب منه أن يريح ويستريح . ولكن كان هذا مستحيلا اذ لو توفرت لـــه الرغبة فانه ما كان من الممكن أن تتوفر له القدرة . لان العدوان يدق الابواب وينساب من النوافذ ويتسرب من

الفجوات فلا هو يدع النائم في نومه ولا هو يدع المتيقظ يهنأ بتيقظه . فهو في حركة دائمة ونحن دائما أهدافه التي يسعى الى السيطرة عليها لابتلاعها لعلها تسد شيئا من أطماعه .

● وكان المجتمع المصري يقع تحت ضغطين رئيسيين : الضغط الاول كان يتمثل في أنه مجتمع بطيء النمو ، والضغط الثاني كان يتمثل في أن المجتمع كان يعيش في حالة خلل محزن وتناقض خطير في العلاقات التي كانت تنظم حركة المجتمع .

ومن ناحية الضغط الاول وهو بطيء نمو المجتمع فانه طبقا للاحصائيات العلمية الدقيقة كان المجتمع قد وصل الى حالة ركود تكاد تكون تامة خلال أربعين سنة ما بين عام ١٩١٣ الى عام ١٩٥٣ ففي تلك الفترة كان معدل النمو لا يزيد من المتوسط عن واحد ونصف بالمئة سنويا وهي نسبة نمو كانت الزيادة في عدد السكان تستوعبها .

أما من ناحية الضغط الثاني فكان يتمثل في التفاوت الخطير بين الطبقات فكان واحد ونصف بالمئة من السكان يحصلون على نصف الدخل القومي ، علاوة على أن الملكية من الاراضي الزراعية كانت قد تركزت في يد القلة المالكة التي كانت تتحكم في الاغلبية من الاجراء ثم كانت ثروات مصر ليست ملكا لابنائها فكل المرافق الحيوية كانت في أيدي الشركات الاجنبية مثل قناة

السويس والسكك الحديدية وخطوط الترام ومرافق الكهرباء والمياه والبنوك والصناعات ومساحات كبيرة من الاراضي الزراعية .

وكان العلاج تحت ضغط تلك الظروف ليس مجرد استرداد الثروات الى ملاكها الحقيقيين عن طريق التمصير والتأميم وانما كان الى جانب ذلك اضافة وتوسيع بدأها مجلس الانتاج بعد شهور من قيام الثورة ثم اشرف عليها بعد ذلك وزارة الصناعة التي انشئت منذ عام ١٩٥٦ والتي قامت تحت ظروف الحصار الاقتصادي الذي أعقب حرب السويس بوضع خطة ثلاث سنوات للصناعة مهدت لخطة التنمية الشاملة بعد ذلك والتي بلغ فيها معدل النمو زيادة سنوية قدرها ستة ونصف بالمئة واثناءها دخلت مصر مرحلة الصناعة الثقيلة رغم تعقيداتها وبطيء مردودها بهدف الاقتراب من أجل الاعتماد على النفس بقدر الامكان من جانب ولتغيير التكوين الاجتماعي من جانب اخر بنقل فائض العمالة في قطاع الزراعة الى قطاع الصناعة للتغلب على مشكلة البطالة المقنعة الموجودة في قطاع الزراعة .

● وترتب على هذا الخلل في الملكية خلل اخر في التمثيل النيابي اذ لا مندوحة أن تتكون في ظل هذا النظام المالي ديكتاتورية برلمانية تكون انعكاسا طبيعيا للسيطرة الاقتصادية . فكانت هناك مجالس نيابية يجتمع فيها نفس الفئة المتحكمة في الارض وسوق المال . وبذلك

تكون اقطاع سياسي الى جانب الاقطاع الاقتصادي ولم يكن عجيبا بعد ذلك أن تلك المجالس لم تتحدث الا نادرا عن مصالح الجماهير الكادحة وعن ضرورة تذويب الفوارق بين الطبقات . كانت تلك المجالس غطاء زائفا للحرية اذ أنها كانت توفر حرية الطبقة المتحكمة والحاكمة في نفس الوقت أما الحرية التي ترتبط بلقمة العيش فكان التحدث فيها محرما وممنوعا الى ان جاء عبد الناصر ليبدأ في تساؤله الملح عن معنى الحرية ؟ « فما هي الحرية بالنسبة للرجل الذي لا يجد لقمة العيش لاولاده في الليل ؟ ان الحرية بالنسبة له ليست الا أن يجد لقمة العيش لاولاده ... الحرية بالنسبة للفلاح الذي يشتغل عبدا في الارض هي ان يكون حرا ويكون سيد نفسه .. الفلاح الذي يطرده صاحب الارض من ارضه هو ومتاعه وعائلته لانه لا يطيع الاوامر ولا يقبل أن يكون رقيقا أو عبدا أو خادما مطيعا ... ان الحرية عنده أن يكون مطمئنا على حياته ومستقبله ... والحرية بالنسبة للعامل الذي يفصل في كل وقت والذي لم يكن له الحق في أن يقول رأيه واذا قال رأيه بجدية يفصل من عمله أياما ... ان الحرية بالنسبة له أن يكون مطمئنا على عمله ومطمئنا على مستقبله . كان من الواضح لنا بعد الدروس التي أخذناها في السنين الماضية أننا اذا أردنا ان نقيم الديمقراطية فاننا نهدف ونسعى الى اقامة ديموقراطية سليمة لا ديموقراطية تتحكم فيها اقلية على

الاغلبية أو ديمقراطية يتحكم فيها المستغلون وانما كنا نعني ديموقراطية الشعب فالحرية لا تنفصل عن الرزق والمساواة لا تنفصل عن الحرية ولا يمكن أن يكون هناك حرية بدون مساواة ويكون هناك أناس مميزون ولهم الحق في كل شيء وأناس اخرون محرومون من كل شيء » .

وكان عبد الناصر ــ كما سبق أن ذكرنا في مفاتيح شخصيته قد نشأ في أسرة فقيرة وعاش الجو الذي عاد ليتحدث عنه ويعالجه وهو في الحكم ورأى مهزلة المجالس النيابية ولمس تحكم الاقطاع في الحياة السياسية . ولعله تأثر بكل ذلك حينما ألقى بثقله على الحرية الاجتماعية أحد جناحي الديمقراطية ــ كما كان يقول ــ فنالت منه رعاية كبيرة فاقت رعايته للجناح الاخر من الديمقراطية وهي الحرية السياسية .

● وانعكس خلل الملكية على العلاقات التي كانت تتحكم في حركة المجتمع فأوجدت تناقضا خطيرا بين الحقوق والواجبات . . . فالحقوق كلها للقادرين والواجبات كلها على الكادحين .

فالتعليم مثلا ــ وهو حق مشروع للجميع ــ كان قاصرا على طبقة خاصة قادرة على مواجهة تكاليفه . وكان العلاج وهو حق من الحقوق قاصرا على الطبقة القادرة على دفع نفقاته وكان العمل متاحا فقط للطبقات المميزة الا الاعمال الدنيا فتركت لطبقاتها لا عن رغبة

وزهد ولكن عن تعفف وازدراء . وكان المسكن اللائق من المناطق المحرمة التي لا يجوز للطبقات الكادحة حتى أن تفكر فيه . حتى الحذاء كان مجرد أمل بالنسبة لكثير من الفلاحين والعمال الذين كانوا يهيمون في حقولهم ومصانعهم بجلابيبهم الزرقاء المشهورة وهم حفاة .

وفي الوقت الذي حرمت فيه الغالبية من حقوقها كان عليها واجبات خطيرة من المحتم أن تقوم بها ... فالتصويت في الانتخابات واجب عليها لكي توفر الغطاء الشكلي لدفع ممثلي الطبقة المتحكمة فيهم الى قاعات البرلمان ليكرسوا جهودهم لتعميق الوضع الظالم السائد . وفي نفس الوقت اقتصر دفع « ضريبة الدم » للدفاع عن الوطن على الطبقة التي كانت عاجزة عن دفع « ثمن الخلاص » من الجندية وهو يتمثل في عشرين جنيها كانت تسمى « البدلية » أي النقود التي تدفع بدل التجنيد أي في مقابله !!! وكأن شرف الدفاع عن الوطن قد اقتصر على الطبقة التي ليس لها حق التملك فيه !!! فكان التجنيد الاجباري في الواقع لا ينفذ الا على التعساء من حثالة المجتمع الذي لا يملكون ثمن الخلاص الزهيد .. وكأن الذين لا يمتلكون أي شيء هم الذين وكل اليهم أمر الدفاع عن الذين يملكون كل شيء ... !!! ثم كان على هذه الطبقة المعدمة دفع الضرائب للخزينة الخاوية . وكان الدفع يتم من « المنبع » كما يقولون . وكان «المنبع» في أغلب الاحيان جافا ليس به زاد أو ماء بينما القادرون

لا يجسر احد على الاقتراب من « منبعهم » المتضخم الزاخر المليء !!!

● ثم ووسط الضغوط الخارجية التيكانت تتعرض لها البلاد كان « الجيش » لا يملك عتادا ولا سلاحا وقد حاول الرجلسد الفجوة من بريطانيا في اول الامر فتمنعت في انتظار دفع الثمن . . . وتغطية الثمن في سوق السلاح لا يكون نقدا وعدا ولكن هناك طرق أخرى لتسديد الحساب أغلبها ربما يمس السيادة وينقص من الاستقلال . . . ولما راى الباب مسدودا حاول مع الولايات المتحدة الامريكية دون جدوى أيضا . . . وكانت اسرائيل ترتع على الساحة بفعل ما تريد وبريطانيا قابعة بقواتها في قاعدة قناة السويس قاطعة خطوط مواصلات القوات المصرية التي كانت موجودة في سيناء فكان العدو بذلك أمام قواتنا الموجودة في سيناء وخلفها في نفس الوقت . وقام الرجل وسط كل هذه الضغوط بمعجزة « كسر احتكار السلاح » فكانت صفقة التسليح السوفيتي التي تبعتها صفقات .

وبالرغم من ذلك يتعرض عبد الناصر الى اللوم الذي يصل الى حد الاتهام لانه أخطأ بأخذ السلاح الذي دفع به القدر اليه . فكيف « يدنس » يده بسلاح سوفيتي حتى ولو كان « الجيش » يقف تحت رحمة العدو ليل نهار ؟ كيف يسمح بتسرب السلاح السوفياتي حتى لو

كان الجيش أعزلا أمام عدو يتسلح كيف يشاء ؟ لماذا لم يرفض السلاح « المحرم » حتى لو رفض الجميع امداده به حتى مع استعداده لدفع الثمن فورا نقدا وعدا ؟ لماذا ارتكب الرجل تلك الخطيئة ولماذا أقدم على هذا المحظور؟ لقد ارتكب الرجل — هكذا يقولون — شيئا ادا وقطف « الفاكهة المحرمة » .

● ووسط هذه المواقف الصعبة كانت البلاد تتعرض لمؤامرات خارجية وداخلية وبصفة مستمرة كل هدفها اسقاط النظام . وكان هناك أكثر من عشر محطات اذاعة سرية توجه اليه ليل نهار وكانت الضغوط الاقتصادية التي ارتفعت الى حد الحصار الاقتصادي تلتف حول عنقه في كل وقت . ثم كانت الحروب التي تفرض عليه حينما تفشل الوسائل الاخرى في اسقاطه تتتابع بين وقت واخر .

وكان المفروض على عبد الناصر — كما يقول اللوامون — أن يقابل السيئة بالحسنة حتى يمحوها وهم لا يدرون أن الانبياء العزل لا مكان لهم في غابة السياسة . ثم كان عبد الناصر كما قلنا ونحن نتحدث عن مفاتيح شخصيته انسانا وليس نبيا أو ملاكا ... والا بالله عليكم ما هي الطريقة التى كان يواجه بها عبد الناصر تلك المؤامرات الخارجية ؟ وما هي الطريقة التي كان يمكن أن يواجه بها عبد الناصر المؤامرات الداخلية وتعرضه المتكرر للاغتيال ؟ علما بأننا نكرر أن الرجل

كان انسانا يحب ويكره ، يعدل ويظلم ، يخطىء ويصيب .

كان عبد الناصر يعيش في بحر هائج تختلط فيه التماسيح المتصارعة مع الانواء العاتية والعواصف المدمرة وهو نفس الجو الذي تعيش فيه دائما الثورات الاصيلة .

ووجد عبد الناصر نفسه بعد الانفصال في موقف صعب مع المؤسسة العسكرية بقيادة المشير عبدالحكيم عامر .

كان أهم ما شغل الثورة منذ قيامها تنظيم العلاقة بين القيادتين السياسية والعسكرية فكانت العلاقة واضحة ومحددة أيام حرب التحرير عامي ١٩٥٣ ، ١٩٥٤ ضد القوات البريطانية في قناة السويس ، وكانت العلاقة واضحة ومحددة في حرب السويس وحتى حدوث الانفصال فلم يكن كل شيء هادئا في كواليس قيادة يوليو عندما صدر الميثاق الوطني عام ١٩٦٢ ولا عندما صدر بعده في سبتمبر ـ أيلول ـ اعلان دستوري بنقل السلطة الى مجلس الرئاسة كمحاولة لاجياد قيادة جماعية بعد نجاح الانفصال . وحاول المجلس أن يدخل التوازن بين سلطات المشير عامر وبين السلطة الرئاسية المتمثلة في القيادة السياسية بعد فشل المشير أيام العدوان الثلاثي وأيام الوحدة وقد أعد قرار تحديد اختصاصات المشير بما يجعل سلطة تعيين قادة الوحدات في القوات المسلحة من مسؤولية مجلس الرئاسة وليس

من مسئولية المشير ولم يحضر عبد الناصر جلسة مجلس الرئاسة التي نوقش فيها هذا الموضوع فطلب المشير تأجيل بحثه وانضم اليه كمال حسين الذي كان قد بدأ يقترب من دائرة الظل ويبتعد عن المناصب التسع التي كان يستحوذ عليها ولكن الغالبية وافقت على القـــرار واصدرته ولم يمتثل عامر الى ذلك وخرج غاضبا وقدم قادة القوات البرية والجوية والبحرية وبعض كبـــــار القادة استقالاتهم وحدثت حالة هياج بين قادة القوات المسلحة المقربين من المشير واجتمعوا في القيادة واصروا على عودته الى موقعه .

وقد كان !!!

وادرك عامر انه يستمد سلطته من القوات المسلحة فوثق صلته بقادتها وظل يواصل العطاء والمنح لكل من يطلب واصبح للمشير أظافر وانياب . وكان من الواجب حسم مثل هذه الامور عند بدايتها ولكن اهمال ذلــك ادى بالقيادة العسكرية لكي تشكل بروزا وورما خطيرا اصبح من الصعب استئصاله واصبحت القيادة السياسية ينقصها القدرة ــ ولا اقول الرغبة ــ لازالة هذا الورم وهنا اهتزت كل الامور فتغيرت طبيعة العلاقات بيـــن القيادة السياسية والقيادة العسكرية ثم اهتزت طبيعة العلاقات داخل القيادة العسكرية فهبط ميزان الكفــــاءة ليحل محله ميزان الولاء واصبح التأمين الذاتي وليس الامن القومي هو محل الرعاية والاهتمام .

وهنا يتساءل الكثيرون — وانا معهم — لماذا لم تعالج القيادة السياسية الموقف ، ربما يكون ذلك لعجز في القدرة بعد اختلاف موازين القوى بين القيادتين وربما تكون القيادة السياسية قدرت أنه لتصحيح الاوضاع لا بد من صدام ولكنها لم تكن مستعدة لهذا الصدام الا على الارض الملائمة وفي الوقت المناسب .

ولكن يبقى سؤال قائم ! ولماذا لم تعالج القيادة السياسية الموقف قبل أن يستفحل ؟ والاجابة على السؤال صعبة وربما يرجعها البعض الى عامل الصداقة ، وربما يرجعها البعض الاخر الى تغلب عامل التوازن بين اتجاهات أعضاء مجلس الثورة القديم . والله أعلم .

● ثم جاءت النكسة عام ١٩٦٧ ليعيش عبد الناصر في ظل الهزيمة بعد انتصاراته الكبرى في معاركه السابقة وانعكس ذلك على قراراته ولا شك . أصبح الرجل اكثر حذرا واقل اندفاعا عما قبل . كان يحسب ويعيد الحساب بأسلوب تميز بالمرونة والواقعية .

فبعد أن اجتاز قمة اليأس وخيبة الامل التي دفعته الى اتخاذ قرار التنحي في ٩ يونيو — حزيران ١٩٦٧ ابتدأ يستعيد نفسه يوم ١٠ يونيو — حزيران ١٩٦٧ حينما استجاب للرغبة الملحة في بقائه .

ووسط الحطام التي تناثرت من حوله بدأ في محاولاته لازالة آثار العدوان تحت ضغط ظروف قاسية

وشبح الهزيمة لا يفارقه لحظة واحدة وكان كل مـــا يتمناه أن يظل حيا حتى ازالة آثار العدوان ولكن انهيار حالته الصحية لم يتح له ذلك فلقي ربه قبل أن تتحقق الامال .

ولا شك بعد كل هذا الذي قلناه فان عبد الناصر واجه تحديات كبرى في الداخل والخارج على حـــد سواء . ولم يكن الرجل يؤمن بالمبدأ الاصلاحي في معالجة الامور ولكنه كان قائد ثورة ثم أصبح زعيم أمة أعطتـــه ثقتها في الانتصارات والهزائم على حد سواء .

ولا شك بعد كل هذا الذي قلناه فان عبد الناصر كان شجاعا الى أقصى حدود الشجاعة وهو يواجه كل الضغوط التي وجهت اليه فلم يتردد في خوض معركة تلو الاخرى حقق في معظمها انتصارات كبيرة تركـــت بصماتها في الداخل والخارج على حد سواء .

وبحكم طبيعته واجه التحديات باجراءات حاسمة وبطريقة مباشرة لا تعرف الالتواء ... الاسود أســود والابيض ابيض بينما يغلب على الالوان في ميدان السياسة أن تكون بين بين .

كانت المشاكل الموروثة هائلة وكان يسابق الزمن . كان يريد أن يقفز في خطوات واسعة كقفزات النمر بينما يرى ناقدوه أنه كان عليه أن يسير في تؤدة كالسلحفاة . . والنمر يصل والسلحفاة تصل فلم يكن هناك داعيا اذن للسرعة أو التسرع .

وكلمة أخيرة عما قيل من أن قرارات عبد الناصر كانت قرارات غلب عليها « رد الفعل » ويقصدون بذلك أن قراراته كانت مجرد فورات عاطفية وانفعالات شخصية . وهذا قول بعيد عن الواقع .

اذ ما اتضحت سياسة مصر طوال تاريخها من كافة الميادين مثلما اتضحت أيام عبد الناصر ولعل السرعة الخاطفة التي اتسمت بها ضرباته ترجع الى وضوح الرؤية والتحضير المسبق وقد اعترف الاعداء قبل الاصدقاء لعبد الناصر بهذه الميزة .

وحتى لو ذهبنا مع هؤلاء في أن عبد الناصر كان يتخذ قراراته في نطاق « ردود الافعال » فماذا يعني ذلك ؟ انه يعني ان مصر لم تكن تبدأ أحدا بالعداوة كما يرددون ، ويعني أن مصر أصبح لها ارادة وربما يكمن الفرق بين سياسة الدول المستقلة وسياسة الدول المغلوب على أمرها في القدرة أو العجز عن رد الفعل . بل فلا يجوز أن ننسى أن أهم قاعدة من قواعد اللعبة السياسية في عالمنا المعاصر هي التوازن بين القدرة على توجيه الضربة الاولى والقدرة على توجيه الضربة الثانية ... أي التوازن بين القدرة على الفعل والقدرة على رد الفعل . بل نجد ان القدرة على رد الفعل هي التي تتحكم في القدرة على الفعل وليس العكس .

اذن فليس عيبا ما يقولونه عن أن قرارات عبد الناصر كانت قرارات يغلب عليها رد الفعل .

ولكن .....

هل قيامه بالثورة يحسب في نطاق الفعل أو رد الفعل ؟

هل اسقاط أسرة محمد علي يدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل قانون الاصلاح الزراعي وقوانين التمصير والقوانين الاشتراكية تدخل في نطاق الفعل أو رد الفعل؟

هل اقامته دولة الوحدة وسياسته العربية والافريقية وعدم الانحياز تدخل في نطاق الفعل أو رد الفعل ؟

هل مقاومته للاستعمار والعمل على ازالة القواعد العسكرية تدخل في نطاق الفعل او رد الفعل ؟

هل بناء السد العالي ومئات المصانع والمدارس والمستشفيات تدخل في نطاق الفعل أو رد الفعل ؟

كل ذلك أسقطوه من حسابهم وهم يقيمون قرارات عبد الناصر وللاسف فقد سمعت لهم بعض الاذان واطاعتهم بعض الاقلام لان من سوء حظ الامة العربية ومن سوء حظ عبد الناصر ان القدر لم يمهله حتى يتم ازالة اثار النكسة فمات .

الباب الثالث

استراتيجية عبد الناصر لازالة آثـــار العدوان

الفصل الثامن : استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان

الفصل الثامن

استراتيجية عبد الناصر لازالة آثار العدوان

خسرنا معركة ولم نخسر حربا ـ ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة ـ ١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة تعتمد على ارادتنا الذاتية ـ لا نلعب بالاتحاد السوفياتي ولا يلعب بنا ـ قنوات مفتوحة مع واشنطن ـ الخط الحرج ـ خط الامر الواقع ـ السباق بين الاختراق والاعتراض وبين القدرة على رد الفعل والقدرة على الفعل ـ خطة جرانيت ـ كلام كلام ... قتال قتال ـ مخلفات عبد الناصر .

حلق بي الخيال ، وانا افكر فيما وصل اليه الحال فوجدتني امام خاطر غريب وسؤال عجيب !!! ماذا لو لم يمت عبد الناصر ؟ وفكرت كثيرا في السؤال الغريب وعقدت العزم على ان يكون السؤال هو عنوان هذا الفصل ...!! ولكن سرعان ما تبين لي ان السؤال بصورته تلك سوف يحرك كثيرا من المشاعر

المتباينة والحسابات الثقيلة ...

فالكثيرون ممن سيقرأون العنوان المثير ربما يغمضون عيونهم لفترة من الوقت ويرفعون اكفهم نحو السماء ويدعون الله لو ان الخيال اصبح حقيقة !! هؤلاء هم الغالبية العظمى من الواعين والكادحين من العمال والفلاحين والوطنيين وكل المنتسبين الى الحركات الثورية في كل مكان . بينما يصيب الخاطر الغريب البعض بالذعر والانزعاج وربما يلقي بعضهم بالكتاب بعيدا في غضب وهم يستعيذون بالله من الشيطان الرجيم ، وربما لا يخفي البعض الاخر سخطه على الكاتب وافكاره السقيمة ، وهؤلاء هم الاقطاعيون والمستغلون والانتهازيون والمنحرفون واخرون ممن داسوا على الوفاء وتنكروا للزمالة والصداقة وغيرهم ممن لا يجدون لهم مجالا الا في كنف الاستعمار .

وقد يرزح البعض اياما تحت ثقل الخاطر المستحيل ، بل وقد يبدأ البعض وهم تحت وطأة هذا « الكابوس » بمراجعة حساباتهم وموازنة امورهم ... فمن يدري ؟ خاصة واننا في زمن اصبحت فيه المستحيلات ممكنة وجائزة ... ويذكرني هؤلاء بقصة « نابليون بونابرت » مع الصحافة الفرنسية بعد ان فر من منفاه في جزيرة « البا » . فبمجرد ان انتشر خبر فرار « الامبراطور السابق » كانت عناوين

الصحف تدور كلها حول « هروب السفاح بونابرت » او « فرار المجرم بونابرت » !! ولكن حينما تأكد خبر نزوله على الساحل الفرنسي بدأت نفس الصحافة بنفس محرريها تتحدث عن « نابليون بونابرت » دون اوصاف او القاب !! وحينما وقف على ابواب «باريس» ومعه نفر قليل من افراد « الحرس الامبراطوري » ممن عاصروا هزائمه وانتصاراته بدأت نفس الصحافة بنفس المحررين تتحدث في حماس عن « الامبراطور الذي عاد » !!!

فالبشر هم البشر في كل زمان ومكان ...!!! وحتى نتفادى تلك المشاعر المتباينة وخوفا من ان نجنح الى الخيال استبدلنا السؤال الغريب بالعنوان الجيد ... واعرف سلفا ان ما ساقوله سيثير مشاعر متباينة ايضا وهذا احد الصعوبات التي تقفز امام من يكتب عن « العمالقة » ... اذ يعتبرهم البعض « ملائكة » بينما يعتبرهم اخرون مجرد «شياطين» ، ولو انني اعتقد ان الفجوة بين الاراء لن تكون واسعة الى هذا الحد خاصة بعد ان حصرنا حديثنا في قضية واحدة هي « قضية التحرير » والتي ما زلنا نعالجها حتى الان وبعد مرور سنوات عشر على وفاته .

فبعد النكسة مباشرة كانت « مصر » والبلاد العربية قد خسرت كل شيء ... وكان « عبد الناصر » كالتاجر الذي خسر كل رأسماله في السوق ... وفي

مثل هذه المواقف قد ينسحب بعض التجار من السوق بصفة نهائية وهم يؤثرون السلامة ، بينما يصر اخرون على البدء من جديد ليعودوا كما كانوا وربما احسن وافضل . وقد اصر « عبد الناصر » على ان يستعوض الخسارة الفادحة على الساحة العربية ولذلك فانه نادى من اول وهلة « اننا خسرنا معركة ولكننا لن نخسر الحرب » وان الفرض هو « ازالة اثار العدوان واعادة الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » وان « ما اخذ بالقوة لا يسترد الا بالقوة » . وبذلك حدد الفرض ... كما حدد وسيلة الحصول على الفرض ، واخذ يعمل دون هوادة لتحقيق ذلك ضمن استراتيجية فيها ذكاء ودهاء تحتاج منا الى مراجعة وشرح . وربما يساعدني في توضيحها انني كنت بعد « النكسة » قريبا من دائرة اتخاذ القرار ، اعلم الكثير مما كان يجري ويحدث .

١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة تعتمد على ارادتنا الذاتية

منذ اللحظة الاولى للهزيمة اوضح « عبد الناصر » ان الارادة الذاتية هي العامل الفاصل لتحديد نتيجة المعركة ... فالمعركة معركتنا ، واللعبة لعبتنا ، والاوراق اوراقنا ، ان ١٠٠ ٪ من اوراق اللعبة في

يدنا ونحن لا يجوز ان نتركها في يد الغير . فليس معقولا ان تكون ٩٩ ٪ من اوراق اللعبة في يد الولايات المتحدة مثلا او في جيب الاتحاد السوفياتي !! والا فاين الارادة الذاتية للقيادة الواعية وللشعوب المكافحة ؟!

وانطلاقا من هذا المبدأ السليم اخذ يعيد بناء القوات المسلحة ، صحيح كان الاتحاد السوفياتي قد اصيب بخيبة امل كبرى في اصدقائه بعد الهزيمة الكبيرة التي منوا بها وظن الشعب السوفياتي لفترة ليست بالقصيرة ان « السلاح السوفياتي » هزم امام « السلاح الاميركي » الا ان « عبد الناصر » كان يعتقد — عن حق — انه كلما استوعبنا السلاح الذي بيدنا اكثر واسرع كلما كان الامداد بالاسلحة متناسبا مع درجة الاستيعاب .

والى جانب ذلك اتخذت عدة اجراءات لتقوية الارادة الذاتية ... منها :

● تهيئة مسرح العمليات الذي يتسع ليشمل كل انحاء الجمهورية في حرب لم تعد تعرف واجهات بالمعنى المفهوم بعد ان كثف العدو غاراته في العمق وانشئت الطرق والمطارات والموانىء التبادلية .

● بناء مخزون استراتيجي من المواد الاستراتيجية مثل المواد البترولية والغذائية ومواد تصنيع الاسلحة والذخائر .

● انشاء الجيش الشعبي لحراسة المنشآت في

منطقة خطوط المواصلات وزيادة كفاءة الدفاع المدني لمواجهة الغارات المعادية .

● حشد الجهود العربية عن طريق المساعدات الاقتصادية العديدة واستغلال العمق العربي في اعادة التوزيع الاستراتيجي لقواتنا فقد اصبحت ميناء بورسودان مثلا في خدمة وحدات الاسطول ومطارات واد مدني مكانا لتمركز قاذفاتنا الثقيلة ومنطقة جبل الاولياء لوجود بعض الوحدات البرية الاخرى علاوة على الوحدات العربية التي كانت تقاتل جنبا الى جنب الوحدات المصرية على القناة والوحدات السورية في الجولان .

● اشعال جبهة القتال على قناة السويس ، وفي داخل اسرائيل وبصفة تكاد تكون مستمره .

● الاستمرار في خطط التنمية باقصى معدل ممكن .

لا نلعب بالاتحاد السوفياتي ولا يلعب بنا

حددت علاقاتنا مع الاتحاد السوفياتي على اساس اهمية وجوده داخل اللعبة لان انفراد احدى الدولتين الاعظم بالمسرح فيه الطاقة الكبرى « فلص » واحد ينفرد بالغنيمة ولكن اثنين يتنازعان عليها ولا يجدان الوقت للانفراد بها وقد حددت علاقاتنا مع « موسكو »

على اسس واضحة .. فهي قوة عظمى لا يمكننا ان « نلعب بها » ، ونحن دولة مستقلة لا نسمح لهم ان « يلعبوا بنا » .

وعلى ذلك فلا بد ان « نلعب معا » كفريق تلاقت مصالحه واضعين في الاعتبار الا تتعارض « مصالحنا المحلية مع مصالحه العالمية » . فلم يكن التواجد السوفياتي في بعض المناطق او الاوقات احتلالا بأي صورة من الصور بل كان يتم وفق مخطط استراتيجي واع يدل على ذكاء وعمق . فعلاوة على القلق البالغ الذي يسببه هذا التواجد لدى الطرف الاخر مما يجعله في خوف من زيادته واستمراره مما يهيىء حافزا على البحث عن حل فانه يخدم اغراضا استراتيجية محلية .

وعلى سبيل المثال ، كان تواجد بعض قطع الاسطول السوفياتي في ميناء الاسكندرية وبورسعيد حائلا دون ان تقوم القوة الجوية الاسرائيلية بضربهما فتتعطل بذلك منافذنا الوحيدة التي تصلنا بالعالم الخارجي وتقطع خطوط امداداتنا التي نستورد عن طريقها احتياجاتنا الضرورية .

وكان لوجود بعض الطيارين السوفيات فائدة كبرى في توفير طيارينا للقيام بعملياتهم الهجومية على العدو ولانقل بالحرف الواحد من كتاب هنري كيسنجر « سنوات البيت الابيض » صفحة ٥٧٢ «اخبرني اسحاق رابين سفير اسرائيل في واشنطن يوم ٢٤ ابريل —

نيسان ١٩٧٠ ان الطيارين السوفيات يقومون بمهمات دفاعية في داخل مصر وبذلك فقد تحرر الطيران المصري من واجباته الدفاعية ليركز على الهجوم على المدافع الاسرائيلية على طول القناة واصبح السلاح الجوي المصري اكثر قدرة على الهجوم علاوة على ان اشتباك الطيارين السوفيات مع الطيارين الاسرائيليين اصبح لا يمكن تفاديه » . وكان ما يقوله « رابين » يتمشى مع قواعد اللعبة الجارية كما سنرى فيما بعد .

قنوات مفتوحة مع واشنطن

ليس معنى ان الولايات المتحدة وهي احدى الدولتين الاعظم قد اختارت الوقوف الى جانب اسرائيل ضد الاماني العربية عدم فتح الحوار معها .. بل كانت هناك قنوات مباشرة رسمية وقنوات غير مباشرة سرية على اسس وثيقة من التعامل ومعرفة واعية باجراء الحوار على مستوى الدولتين الاعظم .

كان تقدير عبد الناصر — عن حق ايضا كما نلمس الان ونقرأ في كل صفحة من كتاب هنري كيسنجر المشار اليه — ان « الادارة الاميركية كانت تنقسم الى رأيين » :

● الراي الاول : يرى الاسراع في حل النزاع العربي الاسرائيلي خوفا من دخول الاتحاد السوفياتي

الى المنطقة برجاله ومن هؤلاء رجال البنتاجون وعلى راسهم « ملفين ليرد » وزير الدفاع ورجال الخارجية الاميركية وعلى راسهم « وليم روجرز » .

● الرأي الثاني : وينفرد به « هنري كيسنجر » مستشار « الرئيس نيكسون » لشؤون الامن القومي وكان يرى ان عدم حل النزاع سيجعل العرب ينصرفون عن الاتحاد السوفياتي ويتجهون الى واشنطن بعد ان يتأكدوا انه اذا كان في مقدور الاتحاد السوفياتي اعطاء السلاح فان الولايات المتحدة هي القادرة الوحيدة على اعطاء الارض . وكان عبد الناصر سيلعب على زيادة التواجد السوفياتي لتعزيز « الرأي الاول » ونسف « الرأي الثاني » . لانه اذا ما انفردت الولايات بالمنطقة وهي المعروفة بصداقتها الابدية لاسرائيل فانها «ستبيع وتشتري » في المنطقة كما تريد . . . لا بد ان يكون هناك « منشط » او « حافز » او « منافس » . هكذا كان يرى عبد الناصر في ادارته الماهرة للصراع في الفترة الحرجة التي عاشها .

الخط الحرج الذي لا ينبغي تجاوزه

هناك « خط فاصل » متفق عليه بين « الدولتين الاعظم » في ممارستهما اللعبة السياسية عليهما عدم تجاوزه خوفا من تصادم ذري بينهما نتيجة لاختلال

التوازن او العدوان الثقيل على المصالح فضلنا ان نسميه « بالخط الحرج » وقد شرحت هذه النظرية بالتفصيل في كتابي « الامن العربي في مواجهة الامن الاسرائيلي » .

ويتحقق انسب وضع للصدام المحلي حينما تتفق نتيجة الحسابات المحلية مع نتيجة حسابات الدولة الاعظم . والمسافة الثي تقف عندها الدولة الاعظم من « الخط الحرج » في الصراع العالمي تتناسب تناسبا عكسيا مع « الاماني القومية » فكلما قل البعد عن « الخط الحرج » كلما زادت الاماني القومية سلامة وامنا والعكس بالعكس .

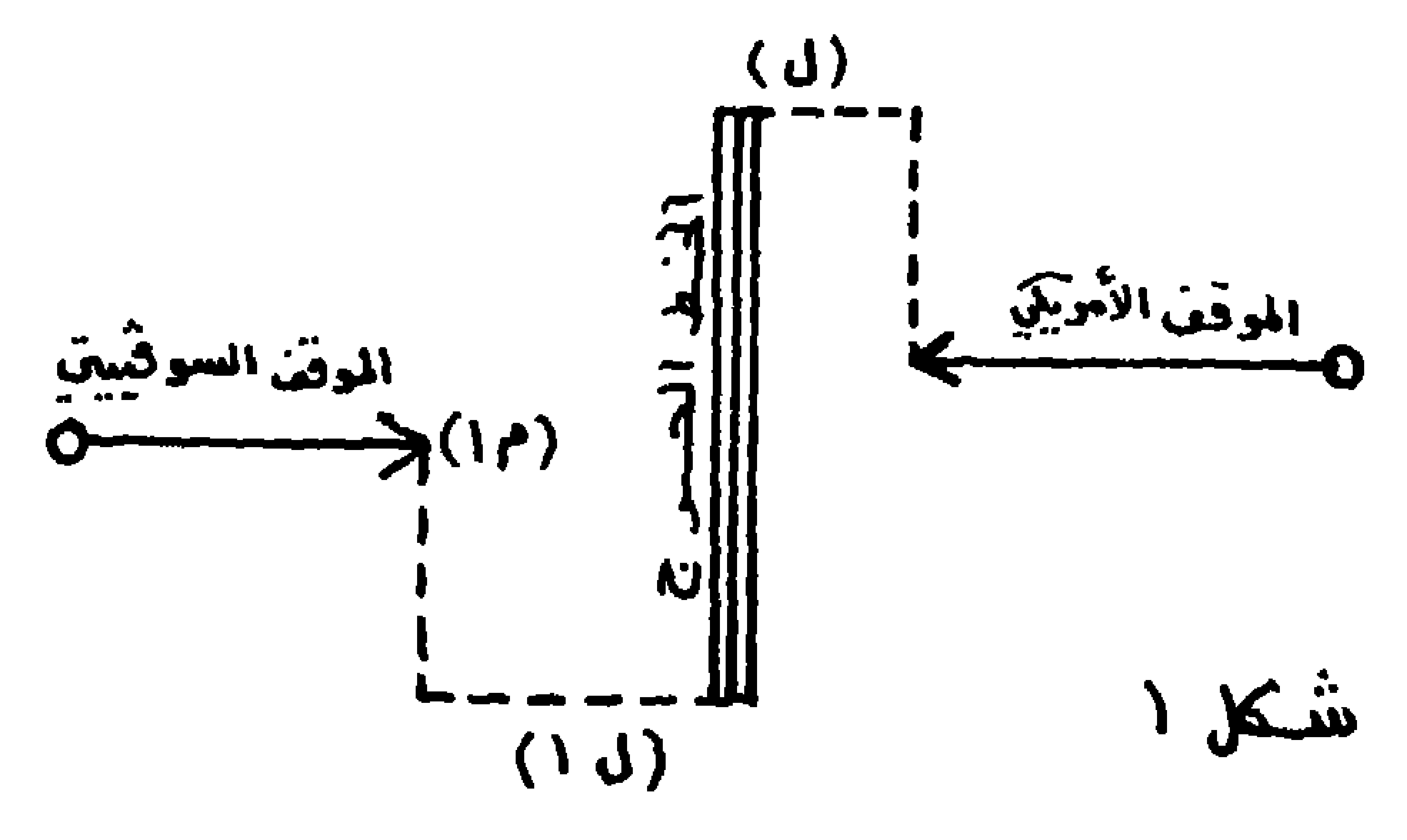
والدولتان الاعظم موجودتان — شئنا ام ابينا — في كل منطقة من مناطق العالم وقربهما او بعدهما من « الخط الحرج » يتفق تماما مع مصالحهما في المنطقة . وكان عبد الناصر يحاول دفع الاتحاد السوفياتي قريبا من « الخط الحرج » لان الولايات المتحدة كانت قريبة بالفعل منه لاعتبارها أن مصالحها متطابقة مع الوجود الاسرائيلي .

كانت وسيلته الى ذلك تتلخص في العمل على زيادة ثقل الوجود السوفياتي في المنطقة حتى يكون ذلك حافزا للطرف الاخر على ايجاد حل للنزاع العربي الاسرائيلي .

فكان تواجد بعض اطقم الصواريخ مـــن الروس يتمشى مع هذا الاتجاه .

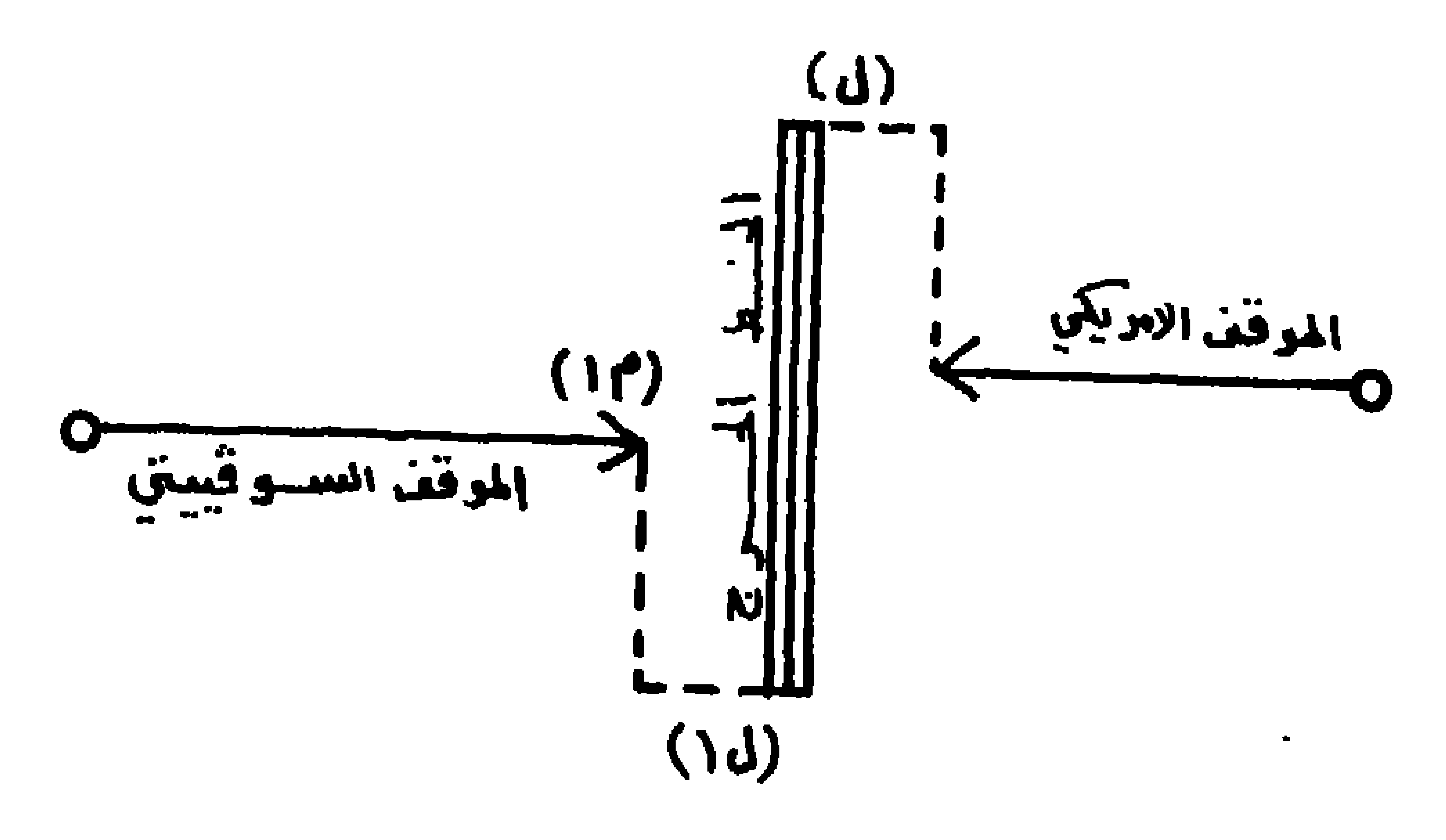
وكان تواجد بعض قطع الاسطول الروسي فـــي نفس المياه التي كان ينفرد بها الاسطـــــول السادس الاميركي يتمشى مع هذا الاتجاه .

وكان تلاقي القاهرة وموسكـــــو في محاربـــة « الامبريالية » يتمشى مع هذا الاتجاه ولنوضـــح هذا الذي نقوله بالرسم التوضيحي الاتي :



شكل ١

الشكل (١) يمثل تماما موقف الدولتين الاعظـــم بعد نكسة ١٩٦٧ ، فالموقف الاميركي (م) يبعد عـــن الخط الحرج الذي لا يجوز تخطيه بمقدار المسافة (ل) والموقف السوفياتي (م ١) يبعد عن الخـــــط الحرج بمقدار المسافة (ل ١) والمسافة (ل ١) اكبر مـــــن



شكل ٢

المسافة (ل) وترتب على ذلك ان الاماني القومية لاسرائيل وجدت نفسها في درع صلب جعلها تتشبث بالامر الواقع وكان هذا هو الوضع الامثل لاسرائيل .

وكان من الطبيعي ان يحاول « عبد الناصر » تغيير الوضع ولا يمكن ان يتم ذلك الا اذا اصبحت المسافة (ل ١) = المسافة (ل) او اقل منها ، وتم هذا كما في الشكل (٢) بعد زياراته المتعددة الى موسكو ووصول الصواريخ سام ٣ وسام ٦ باطقمها وتواجد بعض الطائرات بطياريها .

وسأنقل ايضا من كتاب هنري كيسنجر « سنوات البيت الابيض » فيقول « في ١٩٧٠/١/٣١ سلم دوبرين رسالة من اليكس كوسيجين الى الرئيس وفي نفس الوقت سلمت رسالة مماثلة الى كل من ويلسون وبومبيدو ، تحذر من استمرار اسرائيل في هجماتها في عمق مصر لان هذا سيجبر الاتحاد السوفياتي على النظر في امكان امداد الدول العربية بوسائل تحول دون ذلك . وناشد الدول الاربع اجبار اسرائيل على ايقاف هجماتها وقبول السلام الدائم بعد انسحاب القوات الاسرائيلية باسرع ما يمكن من الاراضي العربية المحتلة » . ويستمر كيسنجر قائلا « بمجرد التأكد من وصول الجنود السوفيات الى مصر ـ وهذه اول مرة تتمركز فيها قوات سوفياتية على ارض غير شيوعية ـ وجهت سفيرنا في موسكو جاكوب بيم لمقابلة جروميكو للوصول الى حل لايقاف النيران ، الا ان موسكو رفضت ذلك ورفضت الحد من التسلح الا بعد انسحاب اسرائيل الى حدود ١٩٦٧ ثم قابلت دوبرونين سفيرهم في واشنطن في ١٩٧٠/٢/١٠ واخبرته بان التواجد السوفياتي في الشرق الاوسط تنظر اليه الولايات المتحدة نظرة خطيرة وانني اخترت هذه الطريقة للحوار حتى نتجنب المواجهة . واننا على استعداد للتفاوض من اجل ايجاد حل للمشكلة » ثم يستطرد « كيسنجر » فيقول : « بعد وصول الافراد السوفيات القى البنتاجون

اللوم على اسرائيل فهي التي تسببت بعنادها في ذلــك واقترح الوصول الى حل سلمي ومعنى ذلك ان رجــال البنتاجون يريدون لجهة اخرى ان تحل المشكلة كمــا حدث في فيتنام وعلاوة على ذلك فقــد ايدت وزارة الخارجية اتجاهات البنتاجون بل علق نلسون علــى ذلك بان السياسة الاسرائيلية هي اساس المشاكــل الحالية وان الهزيمة العسكرية للعرب ١٩٦٧ هــى نصر سياسي للسوفيات فأصبحوا هم اصدقاء العرب ونحن اعداؤهم » ثم يعود فيقول « في يوم ١٠/٦/١٩٧٠ قابلت دوبرونين وسألته : هل يمكن ربط انسحــاب السوفيات من المنطقة مع خطة سلام شامل ؟ »

وهذه هي سياسة الترابط Linkage المعمول بها في الصراع الدولي ... خلق مشاكل عديدة تجعل الطرف الاخر يعيد حساباته على اساس « الاخذ والعطاء » لان السياسة لا هي أخذ فقط ولا هي عطاء فقط ، هي مزيج بين هذا وذاك .

اذن حققت هذه السياسة حتى الان ومن واقــع كتاب « سنوات البيت الابيض » لهنــري كيسنجر : انقساما في الادارة الاميركية ، الكل عدا هنري كيسنجر يلقي اللوم على اسرائيل ، فرض القيود على ارســال الاسلحة الى اسرائيل لدرجة ان وليم روجرز صــرح بانه في تقدير واشنطن فان القدرة الجوية الاسرائيلية كافية لمتطلباتها في الوقت الحالي .

خـط الامر الواقع

وكان « عبد الناصر » يركز اهتمامه على خط اخر هو « خط الامر الواقع » . وان كان « الخط الحـــرج » يتأثر « بالحرارة » فلا بد من اشعاله وبصفة مستمــرة حتى يقتنع « العدو » انه فرض الامر الواقع خـــارج قدراته وحتى يجبر الدولتين الاعظم على التدخل لاطفاء النيران المشتعلة حتى لا تمتد وتنتشر فتهدر مصالحهما وهنا نصبح المواجهة بينهما امرا اكثر احتمالا .

« والردع » هو الذي يفرض الامر الواقع .. لان « الردع » هو القوة التي تردع الجانب الاخر عن القيام بأي عمل يغير من الامر الواقع . والردع يعتمد علـــى « القوة الحقيقية المتاحة » . وبذلك فان الجانب الــذي يمتلك « القدرة على الردع » في امكانه تحقيق اغراضه بالتهديد باستخدام القوة دون الحاجة لاستخدامهـــا بطريقة فعلية . وبذلك يمكنه استغلال وجود الاسلحة والتلويح بها دون استخدامها اي « بتعجيز » الطـــرف الاخر عن طريق القمع والقسر .

وفرض الامر الواقع يحتاج الى وقت لاقراره .

« والردع » هو الذي يوفر هذا الوقت .

وبذلك فان « الردع » هو « درع » الامر الواقع واداته .

وخطورة الردع في « تأثيره النفسي »، ويتضـــح ذلك من المعادلات الاتية :

الردع = التأثير النفسي + التأثير المادي = فرض الامر الواقع .

الردع ــ التأثير المادي = صدام مباشر = رفض الامر الواقع

الردع ــ التأثير النفسي = صدام مباشر = رفض الامر الواقع .

وكان لدى اسرائيل كل وسائل الردع خاصة « الذراع الطويلة » المتمثلة « في قواتها الجوية » خاصة بعد احتلالها لمطاراتنا في سيناء واصرار الولايات المتحدة على امدادها بكافة انواع الطائرات الحديثة .

وبالرغم من ذلك رفض « عبد الناصر » الاستسلام رغما عن الغارات في العمق التي كانت توجه الى اغراضنا المدنية وبذلك فقد كسر اخطر مبدأ في مبادىء الردع هو التأثير النفسي ، واخذ يشن « حرب الاستنزاف » ومعها تضرب الوحدات الفدائية داخل اسرائيل واعود فانقل من صفحة ٣٤٩ من كتاب « سنوات البيت الابيض » لهنري كيسنجر اذ يقول « في فبراير ــ شباط ١٩٦٩ ابلغتنا المصادر الاسرائيلية ان ١٢٨٨ حادث تخريب وارهاب تمت منذ حرب الايام الستة ، منها ٩٢٠ حادثة من الحدود الاردنية ، ١٦٦ من الحدود المصرية ، ٣٧ حادثة من خط ايقاف النيران مع سوريا ، ٣٥ حادثة من الحدود اللبنانية ، ١٣٠ من قطاع غزة . وكانت خسائر

الاسرائيليين هي ٢٣٤ قتيـــلا ، ٢٦٥ جريحا مـــن العسكريين ، ٣٧ قتلى ، ٣٣٠ جرحى مـــن المدنيين . وهذه نسبة مخيفة لدولة تعدادها ٢،٥ مليون وهـــي لا تساوي ٢٠،٠٠٠ قتيل ، ١٠٠،٠٠٠ جريح لدولة فـــي حجم الولايات المتحدة » . بل نجد ان هاعولام هازيـــه نشرت في العدد ١٦٤٠ بتاريخ ٢٦–٣–١٩٦٩ خطـــابا ارسلته احدى القارئات الى رئيس التحرير تقول فيه « نحن نريد مزيدا من الارض » وقد نشرت المجلة ردها على الرسالة بلسان احد الجنود الاسرائيليين ليقول : لو كنت تجلسين في المناطق المحتلة وتفقدين اصدقـــاءك القريبين الذين يموتون كل يوم بواسطة لغم او بواسطة الطلقات او بغير ذلك ما طالبت باحتلال المزيد مـــــن الارض » ونجد ان « رئيس قسم ضحايا الحرب» بوزارة الدفاع الاسرائيلي وهو يهودا نيرون يعلن عن حجـــم الخسائر للجيش الاسرائيلي حتى مايو — ايار ١٩٦٩ فيؤكد انها ٧١٣ قتيلا في حين ان اسرائيل خسرت في الحرب ٧٨٠ قتيلا .

السباق بين الاختراق والاعتراض
وبين القدرة على رد الفعل والقدرة على الفعل

وبعد ان كسر « عبد الناصر » احـــدى دعائم « الردع » المتمثلة في « التأثير النفســـي » برفضه

« الاستسلام » واصراره على مواجهة القتال اتجه ثقله الى كسر « الجانب المادي » ولم يكن الامر سهلا .

كانت محاولاته تتركز في ايجاد حالة من التوازن بين « قدرة العدو على الاختراق » و « قدرتنا على الاعتراض » وكذلك بين « قدرة العدو على الفعل » و « قدرتنا على رد الفعل » .

وتفسير ذلك ان الصراع المسلح هو عبارة عن مبارزة لا تنتهي بين الاسلحة التي « تخترق » والاسلحة التي « تعترض » فمثلا اذا كانت وسيلة العدو في الاختراق ــ كما كان يحدث في ذلك الوقت ــ هي التفوق في القوة الجوية فلا بد ان يكون التركيز على تقوية « دفاعنا الجوي » الى ان يتيسر لنا الحصول على « القوة الجوية القادرة على الاختراق » .

وفعلا في زيارته الشهيرة الى موسكو حصل عبد الناصر على صواريخ سام ٣ وصواريخ سام ٦ بل واطقم هذه الصواريخ من السوفيات حتى يتيسر تدريب الاطقم المصرية ، ثم بعد ذلك استغل عبد الناصر الفترة الغير مستقرة بعد قبوله « مبادرة روجرز » عام ١٩٧٠ لنقل حوائط الصواريخ قريبا من القناة بحيث تحمي قواتنا على الضفة الغربية وفي الوقت نفسه تستتر وتغطي اي عملية عبور في المستقبل الى الضفة الشرقية .

وقد تم عبور ١٩٧٣ تحت ستار حائط صواريخ عبد الناصر الذي انشأه عام ١٩٧٠ ولم تتمكن قواتنا من التقدم خطوة واحدة ابعد من مدى حماية هذه الصواريخ بالرغم من انه كان من الممكن استخدام وسائل اخرى .

ولنرجع مرة اخرى الى هنري كيسنجر في كتابه « سنوات البيت الابيض » لنجده يقول « في ١٥ اغسطس ــ اب ١٩٧٠ قابلني اسحاق رابين واكد ان ١٤ موقع صواريخ سام « ٢ » معززة بثلاثة مواقع صواريخ سام ٣ حركت في المنطقة العازلة وان اسرائيل فقدت ٥ طائرات فانتوم في يوم واحد » ثم يقول : « استخدم عبد الناصر مبادرة روجرز لتحريك صواريخه للامام واصبحت هذه الصواريخ لا توفر الحماية للقوات المصرية في القناة فحسب بل اصبحت قادرة على حماية اي عملية انزال مصرية على الجانب الاخر وقد انتهز عبد الناصر فترة ايقاف النيران لان الصواريخ ستكون مؤمنة ضد الضرب » ثم عاد ليكتب « في ٢٢ يوليو ــ تموز ١٩٧٠ بدأ الروس والمصريون في انشاء خط دفاعي بمحازاة القناة وعلى مسافة ٢٠ ــ ٣٠ ميلا وهذا الخط يشمل ٣ مواقع سام ٣ ، ١١ موقع سام ٢ وسوف تقوى وتعزز هذه المواقع في المستقبل واصبحت قادرة على حماية مواقع المدفعية المصرية التي تقذف الاسرائيليين في الشرق بل وتعتبر في الوقت نفسه قاعدة للهجوم المصري المنتظر .

واصبح على الاميركيين مواجهة النظرية الروسية التي تستخدم الوجود السوفياتـــــي لتعزيز نفوذها الجيوبوليتيكي فما بدا على انه وجود لمنع الاختـــراق الاسرائيلي انتهى الى كونه وسيلة ضغط لانسحـــاب اسرائيل » .

هذا من ناحية السباق بين «القدرة على الاختراق» و « القدرة على الاعتراض » .

فماذا كان عليه الموقف في السباق بين « القدرة على الفعل » و « القدرة على رد الفعل » ؟

كان لدى اسرائيل السلاح الرادع متمثلا فـــي الطائرات بعيدة المدى من الفانتوم والسكاي هوك فلو امكن لمصر الحصول على الطائرة بعيدة المدى ايضـــا لبطل مفعول السلاح الرادع الاسرائيلي . وهذه نتيجة حتمية في ادارة الصراع الذي يعتمد على الردع فامتلاك القوتين الاعظم الاسلحة الذرية في مخازنهما ابطـــل استخدام القوة الذرية في الصراع وامتلاك الغـــازات السامة للاطراف المتعددة يمنع استخدامها .

ولم تكن الطائرة بعيدة المدى متيسرة لدى مصر في في ذلك الوقت رغما عن محاولاتنا المتعددة مع الاتحاد السوفياتي فلم تكن حساباته قد تطابقت مع حساباتنـــا في هذا المجال بعد ، كان يخشى بدوره دفع الامـــور باكثر مما تحتمل فينجم عن ذلك المواجهة التـــي يريـــد تجنبها .

ولكن تدخل الحظ فجأة وحدثت ثورة « الفاتح » من سبتمبر ـ ايلول ١٩٦٩ بقيادة الاخ «معمر القذافي» وسعى الرجل في استماتة حتى يتيسر له في اوائل عام ١٩٧٠ الحصول على صفقة فرنسية وافق عليها الرئيس الفرنسي بومبيدو وتتعلق بشراء ليبيا مائة طائرة ميراج يتم توريدها على اربعة سنوات . وتم الحصول على عدد من هذه الطائرات وضعت تحت تصرف القيادة المصرية .. واصبح لدى مصر سلاح رادع في مقدوره ضرب اسرائيل في العمق ، وكان هذا من اخطر التطورات الاستراتيجية في الصراع الدائر.

واصبحت مصر قادرة على « رد الفعل » وبذلك كسرت القاهرة بفضل سياستها العربية الجناح الاخر من معادلة « الردع » ويرجع الفضل في ذلك الى « معمر القذافي » واقول هذا للتاريخ .

وقد تحدث هنري كيسنجر في كتابه « سنوات البيت الابيض » عن ذلك اثناء حديثه عن زيارة بومبيدو للولايات المتحدة في نهاية فبراير ـ شباط ١٩٧٠ وكيف استقبل الرجل هو وزوجته استقبالا سيئا من العناصر اليهودية لموافقته على عقد تلك الصفقة ويقول بالنص « ولم يكن لدى ليبيا الطيارين الذين يقودون هذه الطائرات واصبح من الواضح انها اشتريت لدولة اخرى من المحتمل ان تكون مصر » . ولم يغفر بومبيدو ابدا للولايات المتحدة استقبالها السيء له مما اثر على

العلاقات بين البلدين . وبذلك اصبح لدينا القدرة على الاعتراض وتساقطت الطائرات الاسرائيلية على ضفتي القناة . . كما اصبح لدينا القدرة على رد الفعل التي يمكن ان تتضاعف في الاسابيع التالية :

وحينما تم لعبد الناصر ذلك اقدم على اعظم خطوة في ادارة الصراع وهي قبوله لمبادرة روجرز .

خطة جرانيت

وفي اثناء ذلك كانت خطط العبور تجهز في سرية وتكتم ويجري عليها التعديلات بين وقت واخر على حسب تطور التقدم في التسليح والتدريب وتجهيز مسارح العمليات . كان الغرض هو العبور ثم الوصول في مرحلة واحدة الى مناطق الممرات ، وكان الاسم الكودي للخطة هو « جرانيت »وكتجارب ابتدائية للتنفيذ اخذت قواتنا تعبر الى البر الشرقي في وحدات صغيرة في اول الامر ، ثم زاد حجمها الى « سرايا باسلحة معاونة » لتدمير العدو والحصول على معلومات عن دفاعاته والقبض على الاسرى .

وقد قامت المخابرات العامة بتصوير خط « بارليف » بحيث اتضحت معالمه تماما ، وقامت في الوقت نفسه باتمام دراسة مستفيضة عن الاعياد الاسرائيلية لاختيار احداها لبدء الهجوم اذارؤي ذلك ،

كما قامت باجراء دراسات مستفيضة عن كافة الاهداف الاستراتيجية داخل اسرائيل وكيفية التعامل معها ووضعت كل ذلك على الخرائط وتحت الرمل بل عملت « ماكينات » من الخشب والورق المقوي للاغراض ذات الاهمية الخاصة . وفي الوقت نفسه قامت المخابرات الحربية بدفع دورياتها بعيدة المدى خلف خطوط العدو في سيناء لتبقى هناك اياما قصيرة او طويلة حسب الواجبات المنوطة بها .

كان عبد الناصر في لعبته الكبيرة يستعد « للمعركة الكبرى » اذا فشلت وسائله الاخرى في تحقيق الجلاء عن اراضينا . وتعمدت الا اقول « القتال » لانه لم يتوقف يوما واحدا الا بعد قبولنا لمبادرة « روجرز » .

كلام كلام .. قتال قتال
Talk Talk, Fight Fight

الحوار في الصراع الدولي ديالوج ... نقاش وتبادل افكار وصراع ارادات .

ووسيلة الالفاظ والكلمات والمذكرات جنبا الى جنب مع القنابل والمدافع والطائرات . هذه لهجة وهذه لهجة اخرى تكون في مجموعها لغة الحوار في الصراع المحلي او العالمي على حد سواء .

والحوار يسير في بحر هائـــج مليء بالاخطار والامواج المتلاطمة . الخط الحرج احد شواطئه والامر الواقع هو الشاطىء الاخر . ويتأثر الشاطـىء الاول بمصلحة الدولتين الاعظم بينما يتأثر الشاطىء الاخــر بمقدار اصرار القوى المحلية سواء تلك التي تصر على « رفض » الامر الواقع .

والربان الماهر هو الذي يقود سفينته وسط هذا الخضم بمهارة وشجاعة وصدق والا غرق مع سفينته الى القاع واصبح طعاما شهيا للحيتان . وعلى الربان وهو يقود سفينته ان يتذكر انه خير له ان يكون موضع رهبة وخوف في دنيا السياسة من ان يكون موضع عطف ومديح وعليه ان يكون ثعلبا ليعرف مكان الفخاخ وفـي الوقت نفسه يكون ليثا ليخيف الذئاب . وعليه قبل كل ذلك ان يكون عالما بلغة الحوار ... كلام وقتال ... فالكلام وحده لهجة احيانا يصعب عليهـا التأثير ... والقتال لهجة قد تؤثر وتلين وتجبر الطرف الاخر علـى اعادة حساباته .

وكان عبد الناصر يستخدم طول الوقت اللهجـات المختلفة للحوار ... قتال لا يتوقف ومحادثات مستمرة في نفس الوقت حتى عندما قبل ايقاف النيران بعد مبادرة « روجرز » قبل ذلك لفترة ٩٠ يوما واستغلها في نقـل حائط الصواريخ قريبا من القناة .

فتح قلبه « لجونار يارنغ » وظل الرجل ينتقل في المنطقة « كالمكوك » حتى تقطعت انفاسه ، وشجع المباحثات الثنائية بين موسكو وواشنطن الا ان « هنري كيسنجر » كان ينسفها من وراء ستار ، وشجع المباحثات الرباعية بين موسكو وواشنطن وباريس ولندن الا ان « هنري كيسنجر » كان لها بالمرصاد ايضا ....

ولكنه كان يعلم تماما ان الحل اولا في مسرح العمليات : فلا يمكن ان يتحقق السلام العادل الا بعد تعديل موازين القوى على الطبيعة : كان لا بد له ان يكسب معركة الاعتراض ، وكان لا بد له ان يكسب معركة رد الفعل والقدرة عليه ، وكان لا بد له ان يغير مواقع الدولتين الاعظم من الخط الحرج.، وكان لا بد له ان « يقلقل » الوضع على خط الامر الواقع .

وحينئذ يمكن ان يتحرك الى « الحل » من قاعدة وطيدة اساسها الاعتماد على النفس .

وقبل « مبادرة روجرز » ... وانقل من صفحة ٣٢٧ من كتاب سنوات البيت الابيض لهنري كيسنجر عن الاتجاه الرسمي الامريكي لهذه المبادرة « لقد كنت اعترض على قيام الولايات المتحدة بأي مبادرة في ظل التواجد السوفياتي ، وفي ظل تطرف عبد الناصر ، وفي ظل إعمال الفدائيين . وبالرغم من ذلك تقدمت وزارة الخارجية بورقة مبادىء عامة تقران المفاوضات

القادمة تعتبر مجرد اتفاق وليس بالضرورة معاهـــدة سلام ، وان المباحثات المباشرة ليست ضروريــــة في المراحل الاولى وان كان من المحتمل ان تتم في مرحلة لاحقة ، وانه على اسرائيل الانسحاب من مصر والاردن الى حدود ما قبل الحرب مع تعديلات طفيفة فقط فـــي الحدود مع الاردن ، وفي ١٠ مارس — اذار وافق نيكسون على مقترحات الخارجية على ان تقدم ورقة المباديء الى ايبان عند زيارته ثم تناقش نقطة نقطة بعد ذلك مـــع دوبرينين ثم تعتبر اساسا للمفاوضات الرباعية » .

وحينما مات عبد الناصر في ٢٨ ايلول ١٩٧٠ كان ضمن مخلفاته اشياء كثيرة اهمها : جيش اعيد بناؤه ، خطة جرانيت والتمرين عليها ، حائط صواريخ يستر القوات على القناة ويستر اي عملية عبور ثقيلة ، سلاح ردع متزايد هو طائرات الميراج ، جبهة داخلية سليمــة خطة تنمية طموحة رغما عن الظروف الصعبة ، قنـــاة السويس معطلة الملاحة كوسيلة ضغط ، موقف عربي مساند ، باب المندب مسيطر عليه نتيجة لمساعـــدتـــه لثورتي اليمن الشمالي والجنوبي ، تنسيق كامل مـــع الاتحاد السوفياتي كأحد الدولتين الاعظم يوازن بـــه الموقف الامريكي المعادي ، انقسام في الراي داخـــل الادارة الامريكية ، مبادرة روجرز ، موقف اوروبـــي متعاطف .

ولعل البعض يتساءل : لماذا كان الاعتماد علـــى

« هنري كيسنجر » كمصدر اساسي لتقييم رد فعـل اجراءات عبد الناصر ، والاجابة بسيطة ، ظاهـرة ، ففيه ارضاء لكل من اصدقاء الرجل واعدائه على حـد سـواء ...

فالاصدقاء — وهم يثقون فيه — لا يمكنهـم ان يتنكروا لشهادة صديق . والاعداء — وهم يشكون فيه — يرحبون بشهادته على اساس ان اصدق شهـادة هي الاعتراف بالحق من جانب الاعداء .

ولعل الكثيرين — وانا واحد منهم « يتطلعون في شوق الى الجزء الثاني من كتاب هنـري كيسنجر » « سنوات في البيت الابيض » وفيه سيتدث عن فترة ما بعد عبد الناصر !!

الباب الرابع

ومـات عبـد الناصر

الفصل التاسع : اليوم الطويل
الفصل العاشر : وقائع تحتاج الى وقفة
الفصل الحادي عشر : الوداع الاخير

الفصل التاسع

اليــوم الطويــل

ايلول الاسود ــ في السادسة والربع مات عبد الناصر ــ ترتيبات الجنازة الحزينة ــ بدأت الاسافين وجثة الرئيس لم تخرج من منزله بعد ــ الجثمان فــي قصر القبة ــ الجلسة المشتركة بين اللجنة التنفيذية ومجلس الوزراء ــ التقرير الطبي عن وفاة الرئيس ــ اعمال المادة ١١٠ من الدستور ــ نائب الرئيس ينعي عبد الناصر الى الشعب .

في صيف عام ١٩٧٠ كان الوضع في الاردن قد اصبح في غاية التعقيد وقد اصبح واضحا ان صداما دمويا بين الملك حسين والمنظمات الفدائية الموجودة في الاردن أمر لا يمكن تفاديه . اذ وجد الملك حسين نفسه بمرور الوقت بين شقي الرحى : المنظمات الفلسطينية تزيد من سلطاتها داخل دولته مما اعتبره اعتداءا على سلطته الشرعية ولم يكن من السهل عليه قبول ذلك .

واسرائيل تهدد « بذراعها الطويلة » وتتوعد بالانتقام ان لم يعمل الملك على ايقاف العمليات الفدائية التي تتم من اراضيه .

وكان خوف الملك الحقيقي من المنظمات الفدائية اذ كان يعتبرها بمثابة التهديد الخطير لعرشه ولم يكن يخش في واقع الحال ــ في ذلك الوقت ــ من اي تهديد اسرائيلي اذ كان تامين العرش الاردني احد اهــداف الاستراتيجية الاسرائيلية في ذلـــك الوقت وكانت اسرائيل تعلن انها سوف تتدخل عسكريا في حالــــة اي تهديد يوجه الى الوضع القائم في الاردن .

وفي يوم ١٢ سبتمبر ــ ايلول ١٩٧٠ اعلن الملك حسين الاحكام العرفية في الاردن واستبدل حكومتــه المدنية بحكومة عسكرية برئاسة اللواء محمد داود اذ كان الملك قد عقد العزم على سحق المنظمات الفدائية فـــي بلاده . وما لبث الموقف ان تفجر بين قوات الملك مـــن جانب والقوات الفلسطينية من جانب اخر وخـــاض الطرفان معارك وحشية استخدمت فيها كـــل انواع الاسلحة المتاحة .

وبدأت سوريا في حشد قواتها على الحــــدود الاردنية استعدادا للتدخل في الوقت المناسب .

واعلنت الولايات المتحدة الاميركية انها قد تضطــر للتدخل في الاردن اذا هددت سوريا او العراق النظام الملكي في الاردن .

وبدأت واشنطن تستعد لكافة الاحتمالات فأعلنت حالة التأهب بين بعض القوات الاميركية وتم استنفار الفرقة ٨٢ المحمولة جوا ثم امرت سفـــن الاسطول السادس بالقيام بعملية « استعراض العلم » بالتحرك في اتجاه سواحل لبنان واسرائيل ثم وجه ريتشـــارد نكسون انذارا شديدا الى الاتحاد السوفياتي يحثهـم فيه على ردع السوريين كما اتصل بالملك حسين ليطمئنه على انه لا يقف وحده .

وقام الاتحاد السوفياتي بـــدوره بشجـــب الاستفزازات العسكرية الاميركية ولفت نظر واشنطن الى ان تتبع الحذر في خطواتها التي تقوم بها بصـــدد الموقف المعقد في الشرق الاوسط وان اي تدخل سيزيد الموقف تعقيدا ...

الا ان تطورا غريبا حدث في الموقـــف اذ رات واشنطن ان تستعين باسرائيل للتدخل لحسم الموقـف في حالة توغل القوات السورية في الاراضي الاردنية وكانت « جولدا مايير » رئيسة وزراء اسرائيـل قـد وصلت الى نيويورك في زيارة رسمية وقرر نكســون مفاتحتها في قراره هذا عند لقائه لها في اليوم التالـي وكتمهيد لهذا اللقاء وافق على طلب اسرائيلي بمساعدة قدرها ٥٠٠ مليون دولار وارسال ١٨ طائرة فانتوم في موعد مبكر عن البرنامج الزمني المحدد له . وكان هـذا الطلب يتسكع في ادراج الرئيس لفترة طويلة قبـــل

بداية الازمة .

وفي نفس اليوم ١٨ سبتمبر ــ ايلــول ١٩٧٠ تقدمت القوات المدرعة السورية في اتجاه « اربد » من الشمال الغربي من الاردن وزادت كثافـــة الدبابات السورية التي عبرت الحدود الاردنية في اليوم التالي وارسل الملك حسين رسالة يقول فيها « سقطت اربد في ايدي السوريين » وطالب بمساعدة الاميركييــن والبريطانيين له .

وبدأ التعاون الاميركي ــ الاسرائيلي في رســم الخطط للتدخل وكان يمثل الجانب الاميركي هنـــري كيسنجر والجانب الاسرائيلي اسحاق رابين سفيرهــم في واشنطن في ذلك الوقت وكـــان هيكل الخطــــة الاسرائيلية شن هجوم على القوات السورية في منطقة اربد تقوم به القوات المدرعة الاسرائيلية المتمركزة في الجولان باتجاهها شرقا وجنوبا على ان تتقدم المدرعات الاردنية من الجنوب في اتجاه اربد على ان تقوم المدفعية الاسرائيلية بتقديم المساعدة بالنيران من الضفة الغربية ويقوم الطيران الاسرائيلي بضرب اربد من الجـــو واتفق على ان يقوم الجانب الاميركي بالتنسيق مـــع الاردن مع التأكيد لنملك حسين بأن القوات الاسرائيلية سوف تنسحب من الاردن بعد انتهاء العملية .

وبدأت الاستعدادات الاسرائيلية المحمومة بطريقـــة

علنية في الضفة الغربية للاردن وفي مرتفعات الجولان .

وفي يوم ٢٣ سبتمبر ـ ايلول ١٩٧٠ عقد مؤتمر القمة العربي بالقاهرة ومنذ بدايته كان هناك اتجاهان في الرأي : كان هناك القذافي وجعفر النميري وغيرهما يرون اتخاذ موقف حاسم من الملك حسين ، وكان اخرون من بينهم عبد الناصر يرون ان الغرض من المؤتمر هو وقف المذبحة الحالية وعلى ذلك فان اتخذ موقف التشدد من الملك حسين فان المؤتمر بذلك يكون قد اعطاه المبرر لقطع اتصالاته بالحكومات العربية والمضي في مذبحته ضد المقاومة . وفي ٢٤ سبتمبر ـ ايلول سافر الى عمان وفد برئاسة جعفر النميري للوقوف على ما يجري ومحاولة تهدئة الموقف وعاد الوفد دون نتيجة واخذ الوفد يعرض نتائج مباحثاته على المؤتمر .

ويحسن ان انقل من كتاب « الطريق الى رمضان» لمحمد حسنين هيكل جانبا من النقاش الذي تم في هذه الجلسة حتى نوضح الجو الذي ساد المؤتمر ...

الملك فيصل : اني متفق مع فخامة جمال عبدالناصر ان ذلك كله يبدو كأنه خطة لتصفية المقاومة .

القذافي : اني غير متفق معكم في الجهود التي تبذلونها واعتقد انه لا بد من ارسال قوات مسلحة الى عمان ... قوات مسلحة من العراق وسوريا .

الملك فيصل : تريد أن ترسل قواتنا المسلحة

للقتال في الاردن ؟ هذا ليس عمليا .

عبد الناصر : اظن ان علينا ان نتحلى بالصبر .

فيصل : اظن انه اذا كان علينا ان نرسل جيوشنا الى اي مكان فلا بد أن نرسلها لتقاتل اليهود .

القذافي : ان ما يفعله حسين ابشع مما يفعله اليهود ... والمسألة كلها اختلاف في الاسماء .

عبد الناصر : الصعوبة هي اننا اذا ارسلنا جنودا الى الاردن فان ذلك لن يؤدي الا الى تصفية بقيه الفلسطينيين واريد منكم ان تستمعوا الى رسالة تلقيتها هذا الصباح من الاتحاد السوفياتي . انهم يطلبون منا التمسك بأقصى قدر من ضبط النفس لان الموقف الدولي اصبح دقيقا للغاية واي خطأ في التقدير يمكن ان يؤدي الى ان نفقد نحن العرب كل السمعة التي اكتسبناها خلال السنوات الثلاث الماضية .

القذافي : ما زلت معترضا فاننا اذا كنا نواجه مجنونا كالملك حسين يريد ان يقتل شعبه فلا بد ان نرسل من يقبض عليه ويضع الاغلال في يديه ويمنعه من ان يفعل ما يفعل ويحمله الى مستشفى المجانين .

فيصل : لا اظن أن من اللائق ان تصف ملكا عربيا بانه مجنون .

القذافي : لكن اسرته كلها مجانين .

فيصل : حسنا . ربما كنا كلنا مجانين .

عبد الناصر : في بعض الاحيان حينما ترون

جلالتكم ما يجري في العالم العربي ان ذلك ربما يصبح صحيحا واقترح ان نعين طبيبا يكشف علينا بصـــورة منتظمة ليتبين من هم المجانين من بيننا .

نيصل : اريد أن يبدأ طبيبك بي لاني اشــــك بالنسبة لما أراه في اني استطيع الاحتفاظ بتعقلي .

عبد الناصر : على اية حال . دعونا نعود الـــى موضوعنا الاصلي . اني اقترح أن يصدر على الفـــور بيان باسم الرئيس نميري يقول ان الملك حسين قطـــع للوفد عهدا بانهاء القتال .

القذافي : الملك حسين لن يتراجع ما لم يحس بخنجر فوق عنقه .

ووسط كل هذا الذي يجري كان اللواء محمــــــد داوود رئيس الحكومة الاردنية الذي عينه الملك حسين خلفا لعبد المنعم الرفاعي لمواجهة الموقف في القاهرة واذا به يعلن استقالته لان « الحكومة العسكرية التي شكلت برئاستي في الاردن حملت بما لا ذنب لها فيـــه ولم يكن بيدها من أمر توجيه الامور شيئا وانه يريد الان ان يفسح المجال لتشكيل حكومة وطنية تستطيـــع ان تعيد السلام الى الاردن » .

وانتهى الموضوع كله حينما شن الملـــك حسين هجوما شاملا ضد القوات السورية محدثا بها خسائر فادحة واخذت قاذفاته من طراز هوكر هنتر تقـــذف المدرعات السورية وهي منسحبة من الشمال وحينمـــا

تأكد الملك حسين من سيطرته التامة على الموقف قبل الدعوة في ٢٧ سبتمبر ــ ايلول ١٩٧٠ لحضور مؤتمر القمة في القاهرة ووقع على اتفاق مع ياسر عرفات على وقف فوري لاطلاق النيران وانسحاب كل قوات الجيش وقوة المقاومة من كل مدينة من الاردن مساء ذلك اليوم.

كان عبد الناصر طوال هذه الازمة يعيش في انطابق الحادي عشر في فندق « النيل هيلتون » وبعد أن وقع الاتفاق بين الملك وابي عمار يوم ٢٧ قرر العودة الى منزله في منشية البكري لينام مبكرا اذ كان عليه في اليوم التالي توديع المسافرين من الملوك والرؤساء .

وفي اليوم التالي ٢٨ سبتمبر ــ ايلول ١٩٧٠ ذهب الى مطار القاهرة الدولي لتوديع الملوك والرؤساء وفي اثناء توديعه لامير الكويت شعر بأنه غير قادر على الوقوف وطلب سيارته لتقله من حيث يقف لانه اصبح عاجزا عن السير اليها وركب السيارة وهو يجر رجليه وطلب ان يحضر الاطباء .

وفي الثالثة والنصف كان قد وصل الى منزله ليجد قرينته واولاده في انتظاره على مائدة الغذاء ولكنه اتجه مباشرة الى حجرة نومه في الطابق الثاني .

وبدأت محاولات الاطباء اليائسة دون جدوى . كانت الازمة القلبية اثقل مما ينفع معها اي دواء . وفي السادسة والربع مات عبد الناصر .

بزغت شمس ٢٨ سبتمبر ــ ايلول ١٩٧٠ وكنت

في ذلك الوقت وزيرا للدولة لشؤون مجلس الوزراء . كان علي أن أحضر بعض الاجتماعات العاجلة في الصباح أما بعد الظهر فكان علي أن أمر على مستشفى المعادي حوالي الخامسة بعد الظهر للاطمئنان على حرم المرحوم فاروق حمد الله عضو مجلس الثورة السوداني والذي أعدمه النميري بعد ذلك في صيف عام ١٩٧١ كما كان علي ان ازور الاخ سعد صباح وزير الدفاع الكويتي زيارة عمل في منزله بالزمالك الساعة الخامسة والنصف وفعلا ذهبت الى الزيارتين ولذلك لم أكن حاضرا وقت وقوع الحدث الجليل .

واثناء مروري على منزل العائلة وكانت الساعة حوالي السابعة اخبروني أن رئاسة الجمهورية طلبتني عدة مرات ويرجو المتحدث أن اتصل به في رقم هاتف تركه بمجرد وصولي . وطلبت الرقم ولما عرف المتحدث اسمي صرخ وهو يبكي وينتحب « انت فين ؟ تعالى فورا ... الريس مات ، الريس مات » . وكان الرجل يكرر العبارة بعد ان القيت سماعة الهاتف من يدي وكأنها افعى لدغتني ... وجريت لا الوي على شيء . لم اكن اصدق ما سمعت .

وحينما وصلت منزل « الريس » دخلت من فوري حجرة الصالون التي اعتاد أن يستقبلنا فيها ووجدت هناك السادة انور السادات ، حسين الشافعي ، وعلي صبري ، ومحمد فوزي ، شعراوي جمعة ،

محمد احمد ، سامي شرف ، والليثي ناصف ، محمد حسنين هيكل ... وبعض افراد الحرس الخاص .

كان الحزن يخيم على الجميع ... حزن صامت من البعض ... وبكاء من اغلب الحاضرين .

ولم يكن من السهل فتح اي موضوع للتحدث فيه .

وبدأ البعض منا يثير اسئلة من تلك التي تثار في هذه المناسبات ...

واتفق الراي في هذه الجلسة على الاتي ...

● أن تشيع الجنازة أول اكتوبر ـ تشرين اول ١٩٧٠ .

● ان يذيع السيد انور الساداتبيانا على الشعب العربي بالحدث الاليم .

● أن يتم اجتماع عاجل لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء في قصر القبة الساعة العاشرة مساء .

● تتكون لجنة برئاسة الاخ محمد احمد لتنظيم مراسم واجراءات الدفن .

● تبدأ الجنازة من الازهر الشريف حيث نادى عبد الناصر ايام العدوان الثلاثي عام ١٩٥٦ من فوق منبره « سنقاتل ، سنقاتل ، سنقاتل » .

● نقل الجثمان فورا من منشية البكري الى قصر القبّة .

وقمت بصفتي وزيرا للدولة لشؤون مجلـــــس الوزراء باخطار مكتبي للدعوة الى الاجتماع عليه وبعد ان فرغت من ذلك مباشرة ارتفع حرم الرئيس وهي متعلقة بجثمانه الذي حمله من الدور العلوي الى الدور الاسفل لنقله بوا الاسعاف المنتظرة على الباب الداخلي .

واستغرقت هذه العملية بعض الوقت و مع شعراوي جمعة وسامي شرف في الحديق جوارنا محمد حسنين هيكل يروح جيئة وذها يردد « مش معقول ، مش معقول » .

ويقول حسن التهامي في مذكرات نشر الاهرام ــ على ما اظن ــ انه حينما رآنا هكذ الحديقة ايقن اننا نتآمر ضد السادات ثم يست ليقول « ودخلت من فوري لاخبر السادات بأن ذ جمعة وسامي شرف وأمين هويدي يتآمـــرون وعليك ان تضرب ضربتك قبل فوات الاوان » . قائلا أن الرئيس السادات قال له « ليس هذا و الكلام » .!!!

لقد حدث هذا باعتراف الزميل حسن الته ان تخرج جثة الرجل العظيم من المنزل ولما يمضر موته الا ثلاث ساعات !!! ولا حول ولا قوة الا ب

ولست ادري حتى الان كيف وصل الزميل هذا الذي وصل اليه ؟ كيف يعرف الرجل ما كا

بمجرد مروره هكذا في الحديقة علما بأنني اؤكد للزميل ان هذا لم يحدث على الاطلاق . كانت مجرد الكلمات العادية لا تقوى على الخروج من فم الانسان وكـــان التفكير مشلولا لا يقوى على مثل هذه الظنون . وانني احسده تماما على قوة اعصابه التي مكنته من هـــذا التصور في مثل هذا الموقف العسير !!!

ثم هناك سؤال اخر : اذا كان الزميل المحترم قد اوقع على هؤلاء هذا الاتهام الغليظ فكيف يطاوعـــه ضميره ــ وهو رجل دين وتقوى ــ الا يتأكد قبــل ان يقطع بالظن وهو يعلم ان الله يقول « يا ايها الذيــن امنوا ان جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قومـــا بجهالة » ؟! ثم كيف يطاوعه ضميره ــ وهو الرجل الذي انصرف الى التقرب الى الله ــ بأن يقبل أن يكـــون عضوا ايسر في المحكمة التي حاكمت هؤلاء ضمـــن اخرين فيما سمي بأحداث ١٥ مايو ــ ايار ١٩٧١ خاصة وأنه اتهم فعلا دون ان يتحقق واصبح طرفا فـــي الموضوع ؟!!

وهذا يجعلني اشك كثيرا في انه اخبر الرئيــس السادات بهذا الاتهام والا ما كان الرجل قد عينه عضوا في محكمة تحاكم افرادا قطع مسبقا بأن بعضا منهـم مذنبون !!!

وعلى اي حال فلا فائدة من الاطالة ولكنني اعود فأكرر أن هذا ظن باطل وانه لم يحدث لان كل همنا كان

منحصرا في المصيبة التي وقعت على رأسنا فجـــأة ودون انذار !!!

سامحه الله وسامح غيره وكلنا يعلم ان اللـــــه شديد العقاب .

وفتح الباب الخارجي على مصراعيه ووضـــع الجثمان الطاهر في عربة الاسعاف وتبع عربة الاسعاف عربتان او ثلاثة كنت في احداها مع الزميلين شعراوي جمعة وسامي شرف واخذ الموكب الحزين طريقه الى قصر القبة ...

وكانت هذه اخر مرة تطأ فيها قدماي منزل عبـد الناصر في منشية البكري .

كانت الشوارع هادئة فلم يكن الخبر قد اذيع بعد ... ولم يكن هؤلاء الذين يسيرون في الشوارع الموصلة الى القصر يعلمون ان الموكب يحمل اغلى من في مصـــر كلها ولم يكن هؤلاء يعلمون بالكارثة التي حلت وبالحادث الجلل الذي وقع .

وحمل الجثمان وسط نحيب الضباط والجنـــود الذين تجمعوا وهم لا يصدقون ما يحدث امامهم الـــى غرفة « العيادة » بالقصر حيث وضع جثمانه علـــى السرير الوحيد بالغرفة وقد غطى بملاءة بيضاء . ووقف على الباب حراس بأسلحتهم .

وجهزت الثلاجة الخاصة بالقصر وحينما تم ذلـــك نقل الجثمان اليها ليبقى هناك حتى يوم تشييع الجثمان

الى مثواه الاخير في جامع عبد الناصر بكوبري القبة حيث كانت قيادة الجيش التي سقطت في يد قوات الثورة يوم ٢٣ يوليو ــ تموز ١٩٥٢ .

ويقول الاخ الدكتور صلاح هدايت وزير البحث العلمي السابق انه اخذ صورة وجه عبد الناصر على نوع خاص من « الجبس » حتى يحتفظ بملامحه الحقيقية عنده ولست ادري هل ما زال يحتفظ بها حتى الان .

ولم يبق امامنا الا انتظار عقد اجتماع المجلس المشترك الذي سيحضره كل من اعضاء اللجنةالتنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وكانت الاذاعة والتلفزيون قد قطعا برامجهما العادية واقتصرتا على اذاعة القرآن الكريم ... وبدأ الشعب يحدس ويخمن عما وقع ولكن لم يخطر ببال احد ان آيات الله كانت تتلى على روح عبد الناصر بعد أن فارق الحياة !!!

وتم عقد اجتماع مشترك لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء في قاعة الاجتماعات الموجودة بقصر القبة وهي القاعة التي كان يعقد فيها عبد الناصر اجتماعات المجلس بصفة دائمة .

وكان كثير من الوزراء في ملابس الميدان اذ كانوا قد رجعوا من فورهم من الجبهة على قناة السويس فقد كان الوزراء ــ كل فيما يخصه ــ يذهب لزيارة الجبهة بين وقت واخر لحل المشاكل على

الطبيعة . ولم يكن بعض هؤلاء قد علم بالحادث الجلل بعد . وانفجر اغلب الوزراء في البكاء وكانت علامات الحزن والاسى وربما الضياع قد ظهرت على وجوهنا جميعا .

وجلس الوزراء كل في مكانه وترك مكان الرئيس الراحل شاغرا لم يجلس فيه احد .

كان جسد الرئيس موضوعا في غرفة « العيادة » بقصر القبة على خطوات معدودة من اجتماع المجلس بعد ان تم نقله من منزله « بمنشية البكري » ولم يكن قد تم نقله الى ثلاجة القصر في انتظار تشييع الجنازة بعد .

وتولى السيد انور السادات « نائب رئيس الجمهورية » رئاسة الجلسة .

وبدأ في تبليغ الاعضاء تفصيلات ما حدث والذهول مخيم على الجميع .

وبدا حسن التهامي وزير الدولة التعليق باتهام صريح للهيئة الطبية المشرفة على علاج الرئيس متهما اياها بالتقصير والاهمال . واستدعي الدكتور «منصور فايز » على الفور ليدلي ببيان تفصيلي عما حدث واستغرق بيان « الدكتور فايز » حوالي ربع ساعة انهاه بقوله « لقد نفذت ارادة الله ولم تكن هناك قوة تحول دون ذلك . ان المستحيل عمل من اجل الرئيس ولكن علينا ان نؤمن بانه لا راد لقضائه » . وانصرف

الرجل النبيل والحزن يكاد يعتصره وهو لا يقوى على السير .

ثم عاد انور السادات ليتحدث عن الهيكـل العام لتشييع الجنازة .

وحينما أراد الانصراف على عجل ليذهب الـى مبنى الاذاعة والتلفزيون بشارع « ماسبيرو » ليلقـي بيانه على الشعب اثار لبيب شقير بحكم رئاسته لمجلس الامة في ذلك الوقت موضوع السلطة بعد وفاة الرئيس الراحل وقال الرجل بالحرف الواحد « ان المادة ١١٠ من الدستور تنص على انه في حالة استقالة الرئيـس او عجزه الدائم عن العمل او وفاته يتولى الرئاسة مؤقتا النائب الاول لرئيس الجمهورية ثم يقرر مجلس الامـة بأغلبية ثلثي اعضائه خلو منصب الرئيس ، ويتم اختيار رئيس الجمهورية خلال مدة لا تتجاوز ٦٠ يوما مـن تاريخ خلو منصب الرياسة .. وتطبيقا لهذا النـص الدستوري اقترح ان يتولى الرياسة المؤقتة السيد انور السادات » .

والتفت اليه السيد انور السادات وهو يهـم بمغادرة قاعة الاجتماع قائلا « ليس هذا هو الوقـت المناسب لمثل هذه الاحاديث.وعلى اي حال اعملـوا دراسة دستورية عن هذا الموضوع » . اذ كان مـن رأي سيادته الذي كان يصر عليه خلال الايام التالية الا يتولى الرياسة الا بعد اتمام ازالة آثار العدوان .

وليس صحيحا ما قاله البعض من انه كان هنـــاك مناورات او تردد في اعمال نص الدستور في تلك الليلة وما تلاها من ايام اذ كان الجميع قد اصروا على ان تنتقل السلطة بسرعة وبالطريق الدستوري الذي اعتـــادوا ان يحترموه من قبل اذ ان الجميع كانـــوا يشعرون ان العالم كله ينظر اليهم ويحسب عليهـــــم تصرفاتهـــم وخطواتهم بعد رحيل الزعيم .

ولذلك بادر رئيس مجلس الامة بعد انتهـــــاء الاجتماع مباشرة الى اعلان النص الدستوري الـــــى مندوبي الصحف والاذاعة والتلفزيون مضيفا أن السيد « رئيس الجمهورية سيحضر في اليوم التالي اجتماعا مشتركا للجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء فـــــي الساعة ١٢ ظهرا بالقصر الجمهوري بالقبة » .

وفعلا نشرت كل الصحف نص التصريح في اليوم التالي واذاعته الاذاعة والتلفزيون وتناقلته كافـــــة وكالات الانباء .

وفي الساعة الحادية عشرة الا خمس دقائـــق من ليلة ٢٨ سبتمبر ــ ايلول ١٩٧٠ وجه انور السادات بيانا نعى فيه للامة العربية ابنها وبطلها وقائدها .... قـــال :

« فقدت الجمهورية العربية المتحدة وفقدت الامة العربية ، وفقدت الانسانية كلها رجلا من اغلى الرجال

واشجع الرجال واخلص الرجال ، هو الرئيس جمـــال عبد الناصر الذي جاد بأنفاسه الاخيرة في الساعـــــة السادسة والربع من مساء اليوم ٢٧ رجـــــب ١٣٩٠ الموافق ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ بينما هو واقف في ساحـــة النضال يكافح من اجل وحدة الامة العربية ومن اجـــل يوم انتصارها .

« لقد تعرض البطل الذي سيبقى ذكره خالدا الـــى الابد في وجدان الامة والإنسانية لنوبة قلبية حادة بدت اعراضها عليه في الساعة الثالثة والربع بعد الظهر . وكان قد عاد الى بيته بعد انتهائه من اخر مراســـــم اجتماع مؤتمر الملوك والرؤساء العرب الذي انتهـــــى بالامس في القاهرة ، والذي كرس له القائد والبطل كل جهده واعصابه ليحول دون مأساة مروعة دهمـــت الامة العربية .

« ان اللجنة التنفيذية العليا للاتحاد الاشتراكـــي العربي ومجلس الوزراء وقد عقدا جلسة مشتركـــــة طارئة على اثر نفاذ قضاء الله وقدره لا يجدان الكلمات التي يمكن بها تصوير الحزن العميق الذي المبالجمهورية العربية المتحدة وبالوطن العربي والانسانيازاء مـــــا اراد الله امتحانها به في وقت من اخطر الاوقات .

« ان جمال عبد الناصر كان اكبر من الكلمات وهو ابقى من كل الكلمات ولا يستطيع ان يقول عنه غيـــــر سجله في خدمة شعبه وأمته والانسانية مجاهدا عـــن

الحرية ، مناضلا من اجل الحق والعدل ، مقاتلا من اجل الشرف الى اخر لحظة من عمره .

« ليس هناك كلمات تكفي عزاء في جمال عبد الناصر .

« ان الشيء الوحيد الذي يمكن ان يفي بحقه وبقدره هو ان تقف الامة العربية الان كلها وقفة صابرة صامدة شجاعة قادرة حتى تحقق النصر الذي عاش واستشهد من اجله ابن مصر العظيم وبطل هذه الامة ورجلها وقائدها .

« يا ايتها النفس المطمئنة ارجعي الى ربك راضية مرضية فادخلي في عبادي وادخلي جنتي .

« والسلام عليكم ورحمة الله » .

وكان هذا اليوم الطويل الحزين يوم ٢٨ سبتمبر ـ ايلول ١٩٧٠ يوافق ليلة « الاسراء والمعراج » كما كان يوافق يوم انفصال الاقليم الشمالي عن الاقليم الجنوبي في الجمهورية العربية المتحدة .

ويا للمصادفة العجيبة !!!

الفصل العاشر

وقائع تحتاج الى وقفة

رفض تشييع الجنازة من الازهر ــ استقر الراي على ان تشيع الجنازة من الجزيرة ــ بدأت وفود المعزين في الوصول ــ اجتماع للبت في موضوع ايقاف اطلاق النيران وحقيقة ما تم فيه ــ حقيقة ما تم في اجتماع مدينة نصر ــ بعض الجهود تهز الصورة والجثمان لم يشيع بعد .

ما زلنا نتحدث عن اليوم الطويل الحزين . وكنا قد توقفنا عند القاء بيان السيد أنور السادات الذي وجهه الى الامة العربية وذلك بعد انتهاء الاجتماع المشترك لاعضاء اللجنة التنفيذية العليا ومجلس الوزراء .

وانصرف كل الى حال سبيله .

ولعلنا نذكر انه كان قد تم الاتفاق على تشييع الجنازة من الازهر الشريف وتوجهنا الى هناك حوالي الساعة الواحدة من صباح يوم ٢٩ سبتمبر ــ أيلول

١٩٧٠ . كان الموجودون هناك شعراوي جمعة وسامي شرف وامين هويدي ومحمد احمد وحسن طلعت مدير المباحث العامة واخرون .

وقطعنا الميدان جيئة وذهابا نحاول أن نتصور سير الجنازة وكيف يكون .

وهنا القى رجال الامن برايهم القاطع في عدم صلاحية المكان لتشييع الجنازة ولم تفلح الاراء المضادة لاثنائهم عن القرار الذي وصلوا اليه ...

فالميدان مفتوح تصب فيه شوارع وطرق كثيرة ولذلك فانه من المستحيل السيطرة على سيل المعزين المنتظر ثم الشوارع هناك ضيقة لن تسع لكثافة عربات الملوك والرؤساء ووفوذ المعزين ، والمنازل قديمة لن تتحمل ضغوط الحشود المنتظرة علاوة على أن كارثة ستحدث اذ من عادة السكان أن يتجمعوا في المنازل المطلة على الموكب ولن تتحمل المنازل القديمة من سيتجمعون فيها .

وأما هذه الاراء المعقولة أخذ المجتمعون يقلبون الامر من جديد واخيرا اتفق الجميع على أن يبدأ في تشييع الجنازة من مبنى « مجلس الثورة » بالجزيرة فأهمية المكان التاريخية لا تحتاج الى تعليق علاوة على أنه مكان مقفول نسبيا اذ يمكن التحكم في الكبارى والجسور التي توصله بشاطىء النيل اذ يصبح من السهل اقامة الاسلاك الشائكة وحشد القوات واذا

اضطر الامر يمكن فتح الكبارى فيتعذر على تجمعات البشر أن تقتحم المكان المخصص لتشييع الجنازة .

ووافق الجميع على المكان المختار وترك لـ سلاخ محمد أحمد السكرتير الخاص للرئيس الراحل عمل باقي الاجراءات ووضعنا ما يمكن أن نبذله جميعا من جهد تحت تصرفه . وكانت الشمس قد ظهرت في الافق من جديد حينما انصرفنا الى منازلنا لتغيير ملابسنا واستئناف العمل لمواجهة ما امامنا من مسؤوليات» .

وفي هذا اليوم بدأ الرؤساء وأعضاء الوفود في الوصول للاشتراك في تشييع الجنازة .

وبدأت عدة اتصالات مع أعضاء الوفود ورؤسائها في الفنادق التي ينزلون بها .

وقد تم اجتماع مساء يوم ٣٠ سبتمبر ـــ ايلول ١٩٧٠ في مكتب وزير الحربية الفريق محمد فوزي بكوبرى القبة حضره كل من محمود رياض وزير الخارجية وشعراوي جمعة وزير الداخلية وحافظ اسماعيل رئيس المخابرات العامة وسامي شرف وزير الدولة لشؤون رئاسة الجمهورية ومحمد حسنين هيكل وزير الارشاد وأمين هويدي وزير الدولة .

كان الغرض من الاجتماع هو الوصول الى قرار بشأن تجديد قرار وقف أطلاق النيران الذي كان ينتهي في ٩ نوفمبر ـــ تشرين ثاني ١٩٨٠ والذي كانت مصر قبلته بعد موافقتها على مبادرة روجرز .

ويقول هيكل في كتابه « الطريق الى رمضان » بهذا الخصوص « لم يكن التوصل الى قرار في هـذا الامر سهلا وكان شعوري أن علينا أن نمد وقف اطلاق النار لاسباب سياسية بحت . صحيح ان الاستعداد لعملية جرانيت ١ كانت تمضي في طريقها ولكن مـن الذي كان يستطيع في ذلك الوقت أن يتحمل مسؤولية اصدار الامر بتنفيذها ؟ كان اليوم انذاك اخر سبتمبر ـ أيلول وكان لا بد لمن سيختار رئيسا جديدا أن يثبت في منصبه باستفتاء عام يستغرق الاعداد له معظـم شهر اكتوبر ـ تشرين أول . وليس من الانصاف أن نتوقع منه اصدار الامر ببدء الحرب ولما تمض عليـه في منصبه الا بضعة أيام . ثم هل من الانصاف أن نزج بالبلاد على الفور في معركة وهـي لا تزال ممزقـة بالحزن ؟ وهكذا اعلنت انني في جانب مد وقف اطـلاق النار . وتحدث البعض مؤيدين الاجراء العاجل وخطر لي أن خير وسيلة لحسم الموضوع هـي سماع رأي الرجل المحترف . وتحدث الفريق فوزي وقال ما يفهم منه ان مصر العليا أي الصعيد لم تستكمل شبكـة الصواريخ فيها بعد . وسألته : قل لي .. هل انـت مستعد من الناحية العسكرية المحضة لاستئنـاف القتال ؟ قال : انا جندي واذا صدر امر مكتوب الـي فأني سأنفذ ما تطلبه مني القيادة السياسية . وكان ذلك غريبا اذ لم يحدث طوال حياة عبد الناصر ان طلب

الفريق فوزي أية اوامر مكتوبة وقلت : ليس ذلك بالضبط هو الجواب على سؤالي . السؤال هو : هل يناسبك من الناحية العسكرية أن تبدأ القتال على الفور ام انك تفضل ان يتاح لك مزيد من الوقت للاستعداد ؟ ورد على الفور : اذا منحت فرصة شهرين اخرين فاني أظن أن موقفي سيكون أحسن . ستكون بطاريات الصواريخ في مصر العليا قد استقرت في مواقعها وسأشعر عندئذ بمزيد من الامن . وقلت : اظن أن في هذا ما يجيب على تساؤلنا واذا كان الجيش يرى أن من الافضل أن تتاح له فرصة شهرين اخرين فخير وبركة . والفرق ليس كبيرا بين شهرين وثلاثة واظن ان علينا أن نوصي بمد وقف اطلاق النيران فترة ثلاثة شهور أخرى . وقد احتج بعض الحاضرين بان هذه طريقة مفاجئة بلا داع لانهاء المناقشة . لكن الحقيقة انه لم يكن بينهم من كان مستعدا للمضي في المناقشة في الاتجاه المعارض » .

وانتهى كلام محمد حسين هيكل . ولكن لنا وقفة طويلة أمام ما كتبه صراحة وما تركه يسقط بين السطور لاعطاء ايحاء معين ربما تطلبه الموقف حينما كتب ما كتب . ولست أعلق على ما قال تلبية لما ذكره في مقدمة كتابه من انه سوف يكون من « أسعد الناس لو أن أحدا قال لي انك كتبت كذا وكذا .. ولكن الحقيقة كانت كذا وكذا .. ولو أنني اقتنعت لسجلت

اقتناعي ولتراجعت عما كتبت شاكرا ومقدرا لشعاع من الحقيقة أنار امامي ما كان شاحبا أو معتما » ولكن تعليقي نابع من عقيدة تأصلت في النفس تؤمن بأن الانسان اما أن ينطق بالحق الا فالصمت أفضل .

وقبل التعليق أطرح النقاط التالية :

● فلا أظن أن تصحيح واقعة أو وقائع « بصراحة » يمكن أن يغير من علاقة قامت بين هيكل وبيني اساسها الاحترام المتبادل رغما عن ندرة اللقاء .

● ولا اظن في الوقت نفسه أن أحدا يمكن أن يصنفني على حساب مجموعة أو شخص . فلست واحدا ممن أسماهم « هيكل » بمجموعة ١٥ مايو — أيار . وهيكل نفسه يعرف ذلك . الا أنني بالرغم من اعتذاري عن الاشتراك في الوزارة منذ نوفمبر — تشرين ثاني ١٩٧٠ ، وبالرغم من اعتزالي العمل السياسي وتفرغي لكتابة كتابين عن « كنت سفيرا في العراق » و « كيف يفكر زعماء الصهيونية » في وقت واحد الا أنني وجدت نفسي وقد اعتقلت مع الاخرين ، وتنقلت في سجون عديدة مع الاخرين ، وحقق معي على أشياء لا أعرف كنهها حتى الان مع الاخرين ، ثم حكم علي امام نفس المحكمة التي حاكمتهم .. ولا اقول هذا تنصلا فليس هذا من عادتي ولا تباعدا فليس هذا من شيمتي ولكنها هي الحقيقة التي لم يطاوعني قلبي

ان اقولها امام المحقق حتى لا تفسر تفسيرا خاطئـــا او تترجم ترجمة بعيدة عن المقصود .

وليس معنى هذا انه لا تربطني بالكثيرين منهم صداقات عزيزة .

معنى كلامي هذا ان حديثي حديث رجل محايد يقدم شهادته للتاريخ . وهناك فارق كبير بين الشهادة الخالصة لوجه الله وبين الادعاء على الغير او الدفاع عن النفس .

● ان كل ما كتب حتى الان عن تلـــك الفتـــرة كتب من وجهة نظر واحدة بالرغم من اختلاف وربمـــا تناقض من كتبوا عنها ولكن الظروف التي كتبوا فيهـــا وحدت بين الاتجاهات والاهـــداف . وهذا ليـــس شأني . ولكن ما أهتم به هو ان كل ما كتب لم يحاول ان يفرق في عدالة بين الاشخاص والمواقف ولا بيـــن الحقيقية وبين ما حتمته الظروف .

● أؤكد انه حينما تم عقد هذا الاجتماع كان قـــد تقرر وبصفة قاطعة الخطوات الدستورية لنقـــل السلطة ووافق عليها السيد انور السادات . وكان قد تم تحديد تواريخ عقد اجتماعات اللجنة التنفيذية العليا واللجنة المركزية ومجلس الامة وموعد اجراء الاستفتاء على رئاسة الجمهورية بدقة كاملة لقطع خط الرجعة على اي محاولات تحاول الصيد في الماء العكر . ولعل هذا يلقى شعاعا من الحقيقة على الظلال الكثيفة التي

تركتها كلمات الاخ هيكل هنا وهناك .

وبعد نقاط النظام هذه نوضح الاتـــي بخصوص الناحية الموضوعية ...

● فلم يكن الاخ هيكل هو الشخص الوحيـــد الذي سيطر على هذا الاجتماع كما يبدو واضحا مـن حديثه : فهو الوحيد الذي تكلم ، وهو الوحيد الـذي وجه المؤتمر وجهة خاصة ، وهو الذي أفتتح المؤتمـر ثم هو الذي أنهاه ، ثم هو الذي استجوب وزيـــر الحربية وهو الذي قدم التوصية وهو الذي حســـم المناقشة بعد ذلك !!! وتصوير الموقف بهذه الصورة امــر غير مقبول وغير مطابق للواقــع . فالموضـوع متشعب النواحي متعدد الاجناب فكانت له جوانبـه السياسية علاوة على جوانبه العسكرية خاصة تلـك التي تتعلق بتجهيز مسرح العمليات . وكل من الحاضرين كانت له أراؤه ونصائحه .

● لم يكن هناك خلاف على الاطلاق بين أعضـاء المؤتمر على ضرورة مد ايقاف النيران لنفس الاسباب التي أوضحها هيكل في كتابه والتي لم يذكرها أبدا في المؤتمر اذ لم يكن هناك ما يدعو الى ذلك لاتفاق وجهات النظر اتفاقا كاملا .

ودفاعه الحمابسي فيما كتب يلقي ظلالا كثيفة على نوايا من حضروا المؤتمر أو على بعضهم على اقـــل التقدير اذ يوحى بأن هناك من كان يهدف من طـــرح

« الاجراء العاجل » لاحراج القيادة السياسية للتورط في قتال قبل أوانه·الامر الذي لا اظن أنه كان في خاطر أحد من الحاضرين .

● كانت نقطة الخــــلاف الوحيدة والـ ي ـدار النقاش حولها هي المدة التي تقبل فيها ايقاف اطــلاق النيران وربما كنت أنا الوحيد الذي اثار هذه النقطــة وقد أوضحت أهمية ذلك حتى ترتبط القيادة العسكرية أمام القيادة السياسية بموعد تكون جاهزة فيــــه لاستئناف القتال وهذا يعطي للقيادة السياسية فــي تحركها المقبل مرونة كاملة اذ ستكون قادرة علــــى التحرك من قاعدة وطيدة صلبة وحاول الجميع بمــا فيهم هيكل اقناعي بغير ذلك .

وبالرغم من ذلك فقد كانت توصية المؤتمر هــي « مد ايقاف اطلاق النيران » وليس كما ذكره هيكل في كتابه « مد وقف اطلاق النيران فترة ثلاثة شهــــور اخرى » والدليل على ذلك أن القتا لالم يستأنف منــذ ذلك الوقت الا حينما تفجر الموقف كله في ٦ اكتوبــــر ــ تشرين أول ١٩٧٣ أي بعد عامين كاملين .

● لم يكن هناك ما يستدعي دهشة هيكــــل حينما قال الفريق محمد فوزي وزير الحربية « انــــا جندي . واذا صدر لي امر مكتوب فاني سأنفذ مــــا تطلبه القيادة السياسية » فهذا أمر طبيعي معمــــول به دائما وهو ما يعبر عنه « بأمر القتال » الذي يحدد

فيه الغرض من استئناف القتال كذا المهمة المطلوب تحقيقها . تلك الدهشة التي قيلت عرضا في حديث هيكل تلقي ظلالا وشكوكا على مؤتمر كان يبحث مسألة قومية بطريقة مجردة وكان الجميع لا يقلون وطنية ولا غيرة عن الاخ هيكل في نظرتهم تلك . أما أن هذا الوضع لم يكن معمولا به من قبل فان معركة يونيو ١٩٦٧ لم تتوقف يوما واحدا حتى قبول ايقاف النيران عام ١٩٧٠ بل دخلت مصر في معارك الصمود ثم حرب الاستنزاف دون أن يتوقف العمليات يوما واحدا .

● لم يكن هناك احتجاج من بعض ممن حضروا المؤتمر على قيام هيكل بانهاء المناقشة بطريقة مفاجئة كما يقول فلم يكن من حق الزميل أبدا — مع احترامي وتقديري لشخصه — أن ينهي أعمال المؤتمر أو يجعله يستمر أو يوجهه كيفما يشاء خاصة في حضور الشخصيات التي ذكرها .

ومناورته التي ذكر انه قام بها للرد على من كانوا يؤيدون « الاجراء العاجل » بأنه وجد أن خير وسيلة لحسم الموضوع هي سماع راي الرجل المحترف مناورة لم تحدث على الاطلاق . فكما قلت فأن الموضوع كله لم يكن يستدعي مناورات لانه كان من البديهي ونحن نبحث موضوعا يتعلق بأيقاف اطلاق النيران وفي مكتب وزير الحربية أن نسمع لراي الرجل ولم يكن

هذا يحتاج الى جسم او مناورة !!!

كان الموضوع خطيرًا شأن الموضوعات الكثيرة التي كنا نناقشها . وتمت المناقشة في حدود الارتفاع الى مستوى المسؤولية من جميع الزملاء الحاضرين . ولم تكن هناك أي اتجاهات تحتاج الى استغراب او دهشة ولا الى رموز وتشكك !! كانت المناقشة تجري في سهولة ويسر بين زملاء يقدرون الكارثة التي يواجهونها تسيطر عليهم روح الفريق وفي مخيلة كل منهم أن القائد مات في احرج الاوقات والعدو يدق الابواب والعالم كله ينظر الى ما يجري في القاهرة وكل يجري حساباته ويعيد تقديرها من جديد في ظل المتغيرات التي حدثت أو التي ينتظر حدوثها ..

واجتماع اخر اجدني رغم انني أتعرض له لاروي حقيقة ما تم فيه . وأجدني — للاسف الشديد — ولثاني مرة أخالف الاخ محمد حسنين هيكل فيما رواه عنه ... وأيضا سأنقل رواية هذا الاجتماع عما قاله الاخ الفاضل في كتابه « الطريق الى رمضان » ... « وفي اثناء خروجنا من الاجتماع — يقصد الاجتماع السابق الذي كنا نبحث فيه موضوع ايقاف النار — اقترب مني شعراوي جمعة وقال : أظن اننا يجب أن نذهب الى مكان نجلس فيه ونتحدث انت وانا وسامي وامين هويدي . فقلت لا باس . وركبنا نحن الاربعة السيارة الرسمية لوزارة الداخلية المخصصة

له . وجلس هو في المقعد الامامي بينما جلسنا نحن في المقعد الخلفي . وتبعتني سيارتي . كان شعـــراوي وسامي وأمين هويدي اتفقوا على ان يقضوا الليل في مبنى هيئة قناة السويس في جاردن سيتي ومن هنـــاك يستطيعون بسهولة أن يصلوا الى مبنى مجلس الثورة في الجزيرة حيث يبدأ في تشييع الجنازة . أما أنا فكنت ساقضي الليل في منزلي على النيل مباشرة . وهكـــذا فاننا كلنا كنا متجهين الوجهة نفسها . لكن عندمـــــا وصلنا الى العباسية على بعد ٤ أميال من وســـــط المدينة كان الميدان اصبح مغلقا تماما وطلب شعراوي الى السائق أن يتجه شمالا وان يحاول السير فـــي الطريق الخلفي الذي يمر بالقلعة وعندما اقتربنا مـــن أمام كلية البوليس أوقف السيارة والتفت ناحيتنـــــا وقال : أولئك الثلاثة انور السادات وحسين الشافعي وعلي صبري ينزلون في قصر القبة ويتصرفون كأنهم حكومة ثلاثية مثلهم في ذلك مثل كوسيغين وبودغورني وبريجنيف بينما نحن الناصريين الحقيقيين واقــــرب الناس الى عبد الناصر لم نفعل شيئا للتنسيق في مـــا بيننا او الاتفاق على اسلوب مشترك للعمل . وهـــذا ما يجعلني ارى ضرورة البحث في الموقف بعضنا مع بعض . فقلت له : لنكن واضحين بشأن موقف كل منا هناك نقطة نظام اضعها . ونصيحة صغيرة اقدمها . أما نقطة النظام فهي انكم اذا كنتم تريدون التنسيـــق

فيما بينكم بصفتكم وزراء فلا تفعلوا ذلك بحضوري لاني قد استقر رأيي على الخروج وترك الوزارة . وقد أثار قولي غضبا شديدا لدى سامي شرف وقال : لا .. اما أن نخرج كلنا أو نبقى كلنا . فقلت : اني لم اكن ابدا جزءا من السلطة كما هو الحال بالنسبة اليكم . كنت دائما صحفيا ولم اقبل منصب وزير الارشاد الا تحت ضغط شديد من جانب عبد الناصر وتعهدت بقبوله لمدة سنة فقط وقد أنقضت الان ستة اشهر وانتقل عبد الناصر الى رحاب الله وهكذا فقد قررت ان اتحلل من وعدي . واعترض سامي بأني اذا فعلت ذلك فسأبدوا كأني غير مستعد للعمل تحت رئاسة اي شخص اخر غير عبد الناصر في حين انهم سيظهرون في مظهر المستعد لخدمة اي شخص . وقلت لسامي انه يبالغ واني اتخذت قراري بالخروج من الوزارة وسأتمسك به ولذا فاني لا أوافق على أن يتم أي تنسيق بين الوزراء في حضوري . تلك كانت نقطة النظام . أما نصيحتي الصغيرة فهي ان من الخطأ بالنسبة لهم أن يحاولوا العمل معا كناصريين . ان فعلتم ذلك فأنكم ولا شك ستثيرون ردود فعل تؤدي في النهاية الى صراع على السلطة واذا حدث تصادم في الاراء فاني سأؤدي دوري فيه كصحفي أما اذا نشب صراع على السلطة قائم على الاشخاص فلن يكون لي شأن به وستعاني البلاد كلها منه . وازداد

سامي انفعالا وراح يصيح : عبد الناصر لم يمت فقلت له : اسمع لا بد ان تواجه حقائق الطبيعة . ان الرجل مات وسيحكم على كل منكم فقط من الان فصاعدا بما يمكن ان يقدمه من أجل مصلحة البلد . انها صفحة جديدة فتحت أمامكم جميعا . وبدأ سامي يبكي ويصرخ بأننا اما ان نبقى كلنا أو نخرج كلنا . وعندئذ فقدت أعصابي ونزلت من السيارة واتجهت الى سيارتي وكانت تقف وراء سيارة شعراوي مباشرة . وعدت الى القاهرة » .

هذه رواية « هيكل » عن هذا اللقاء وقبل ان ابدأ في التعليق اوضح الاتي :ـ

● لم يمسني هيكل في حديثه من قريب أو بعيد ولم يمسنى الرجل في أحاديثه التلفزيونية التي أجراها عقب أحداث مايو ـ أيار ١٩٧١ ولا في مقالاته التي نشرها في « الاهرام » وهو رئيس تحرير له .. فهكذا اخبرت بعد فترة من وقوع كل ذلك اذ كنت في ذلك الوقت في « زنزانتي » أعاني من « الحبس الانفرادي » لا يسمح لي بالاستماع الى « الراديو » ولا بقراءة الصحف بل ولا بالحديث مع أحد .. اما توفر قلم وورق للكتابة فكان ترفا لم أحلم به أو افكر في حدوثه في تلك الفترة الصعبة .

● وكان من الحكمة ـ والحالة هكذا ـ أن اقفز فوق ما قيل واعبره كما يفعل الكثيرون ولكني

بذلك أكون كاتما للشهادة الامر الذي نهانا عنه الله تعالى في كتابه العزيز . ثم لا أظنني أضير أحدا ــ حتى هيكل ــ بقولي ما حدث دون تحريف والا كان من الافضل أن أقلد « القرد الجالس » الذي سد أذنه حتى لا يسمع وأغمض عينيه حتى لا يرى وقفل فمه حتى لا يتكلم . وأنا في كثير من الاحيان أرغب في ذلك ولكني تحت وقع أحداث معينة لا أقدر على الامتثال للرغبة الجامحة في السكوت .. تماما كما حدث في مساجلاتنا معا أيام ما كتبه عن « زوار الفجر » واصراري على الايضاح كما أفعل الان مع فارق الزمان والظروف .. فقد مرت على تلك المساجلات عشر سنوات كاملة حدثت فيها أحداث وأحداث ؛ ثم أصبح كلانا من ناحية الظروف مهاجرا بقلمه وفكره بحكم الاحداث والاحوال .

● ثم ــ وهنا أضع خطين تحت ما أقول ــ فانني لا ادافع عن احد ممن ذكرهم هيكل في حديثه فكل واحد منهم يفوقني قدرة في الدفاع ان كان الامر يتطلب ذلك . فكما سبق وأن قلت فانني لا أنتسب الى « جماعة » أو « شلة » حتى من أيام عبد الناصر من كان يريد أن يقترب فأهلا به ولكني ما سعيت الى الاقتراب من أحد . واذا كان هذا قد تم في الماضي أيام وجودي في « حفرة ومأزق » السلطة فالاجدر به أن يتم بعد « التخفف » من اثقال السلطة ومحاذيرها .

● لا يعني قيامي بالتصحيح أنني اتخذت موقفا من احد فالحوار لا يعني من وجهة نظري الا وسيلة لزيادة التقارب وتيسير اللقاء لانه يساعد على وحدة الفكر خاصة في مواضيع أصبحت في ذمة التاريخ . والحوار في الوقت نفسه عامل مساعد للتاريخ للاحداث فانه بدلا من أن يحصر الامر في مصدر واحد فأنه يساعد على خلق مصادر متعددة تساعد على الدقة .

وبعدما ذكرنا من نقاط النظام هذه نبدأ في التعليق ....

● فلم يتم اللقاء ـ كما قال هيكل ـ امام كلية الشرطة وبعد انتهاء الاجتماع الذي تم في مكتب وزير الحربية في كوبرى القبة ولكن بداية اللقاءات تمت في قصر القبة . فقد ذهبت أنا وشعراوي وسامي الى القصر لنرى سير الامور في زيارة خاطفة وتركنا سامي في الشرفة الخارجية لفترة طويلة عاد بعدها فجأة ومعه هيكل . ولم اكن أعلم بوجوده في القصر ولم أكن أعلم أن اتفاقا تم بين ثلاثتهم على اللقاء . وبذلك كنت الوحيد الذي يجهل أن لقاءا سوف يتم .

● لم يتم الاجتماع بطريقة مفاجئة كما يقول هيكل ولكن باتفاق مسبق فانه من الجائز ان يكون قد اندفع بغريزته الصحفية لمثل هذا اللقاء حتى يتحسس الاوضاع بنفسه .. ربما لنفسه ، وربما لغيره ، وربما للغرضين معا ... وليس في هذا عيب فمن الحكمة ان

يعرف كل فرد أين يضع قدمه . وعلى ما اذكر فـــان الاجتماع تم في مدخل مدينة نصر وليس أمام كليـــة الشرطة بالرغم من ان هذا لا يغير قليلا او كثيرا فـــي الموضوع .

● لم يلق هيكل ابدا بكل هذه النصيحة عـــن الناصرية والسلطة والصراع ..

ولم يتحدث شعراوي جمعة أبدا عن السادة : السادات والشافعي وعلي صبري كما لم يتحدث عن « الترويكا » الروسية ..

ولم يصرخ سامي أو يبكي ولا هو انكر وفاة عبد الناصر ...

ابدا لم يحدث شيء من هذا كما صوره هيكل في اسلوب غلبت عليه الاثارة الصحفية التي تبعث علـــى التشويق .

ولكن كل ما ذكره شعراوي لهيكل هو اننا قررنا التخلي عقب تشييع الجنازة وبعد انتقال السلطـــة بالطريقة الدستورية وسأله عن رأيه في ذلك .. !!!

● رحب « هيكل » أيما ترحيب بالفكرة وذكـــر ايضا أنه سيترك المنصب الوزاري ليتفرغ لرئاســـة تحرير الاهرام حيث كان الرجل يجمع بين المنصبيـــن مضيفا انه لكل زمن رجاله وعلى الجميع أن يعيـــدوا النظر في أفكارهم وسوف تتعدد اللقاءات في الايـــام القادمة . وسلم الرجل واتجه الى عربته دون أن يفقد

اعصابه ودون أن يغضب واتجه الى منزله واتجهنا نحن الى مكتب سامي شرف وهناك انفجرت في الرجلين لتوريطي في اجتماع لم اخطر به وتساءلت عن سبب اخذ راي هيكل في موضوع يتعلق برغبة كل واحد منا وبارادته ثم لم يكن الموضوع في حاجة الى مناقشته في مدينة نصر وكان الافضل مناقشته في قصر القبة حيث كنا او في مكتب اي فرد فينا .

كنا قد اجتمعنا مرارا وهذا أمر عادي وقررنا ان نتخلى عقب نقل السلطة بالطريقة الدستورية لنفسح المجال للسيد أنور السادات ليختار معاونيه ولو انني كنت مزمعا على أن اتخلى في أقرب وقت ممكن . ورأى شعراوي أن يستشير هيكل في الامر لان من عادته انه كان يستشير هيكل وسامي في كل أمر يقدم عليه .

وكما نرى فان الموضوع الذي تم بسيط للغاية ولكنه حسم بطريقة تلقى الظلال على النوايا ..

ولا شك أن هذه الظلال كانت بالضرورة تترك اثارا في النفوس تتعمق بمرور الايام ..

وحتى لا ننسى .. كانت جثة عبد الناصر ما زالت موجودة في قصر القبة لم يتم تشييعها بعد الى مثواها الاخير .. .. ..

الفصل الحادي عشر

الـــــوداع الاخـــير

ثلاثة استقالات ـــ ترتيب نقل السلطة ـــ الكـــل عـازم على ان تنتقل السلطة باسرع ما يمكن وبطريقـــة دستورية ـــ وساطة الى جعفر النميري ـــ عزيز صدقي يصدر بيانا ـــ سرادق كبير في عابدين ـــ الوداع يـــا جمال يا حبيب الملايين ـــ واختلط الحابل بالنابل ـــ وقفل باب المقبرة ـــ ماذا قيل في وفاة عبد الناصر ـــ دمـــوع على جمال ودموع على وفاء الرجال .

انتهينا في الفصل السابق الى بعض ما كـــان يحدث بعد وفاة الرئيس وقبل مواراة جثمانه ولا بأس من سرد تفصيلات أخرى ...

ففي خلال ايام قليلة من وفاتــــه قدمت ثـــلاث استقالات :

● الاستقالة الاولى من الدكتور محمود فـــوزي وكان ذلك في اول اجتماع للجنة التنفيذية العليا بعد وفاة الرئيس ويبدو انه كان متأثرا من عدم حضـــوره اول

اجتماع مع الوفد السوفياتي برئاسة كوسيغين واراه ان يجس النبض بالنسبة لوضعه في النظام الجديد . ولذلك فانه سحب استقالته بالسرعة التي قدمها بها بمجرد ان أبدى اعضاء اللجنة تمسكهم به !!

● الاستقالة الثانية قدمها محمد حسنين هيكل من منصبه الوزاري كوزير للارشاد ألا ان السيد انور السادات راي الا يبت فيها الا بعد الاستفتاء على منصب رئاسة الجمهورية الذي كان قد تحدد في ذلك الوقت !!

● الاستقالة الثالثة قدمها السيد حسين الشافعي وامتنع فعلا عن الذهاب الى اجتماع اللجنة المركزية الذي كان سيتم فيه مناقشة قرار اللجنة التنفيذية العليا لترشيح السيد انور السادات لمنصب رئيس الجمهورية . وكان سبب تقديمه للاستقالة هو تمسكه بمنصب رئاسة الوزراء طالما ان السيد انور السادات رشح لرئاسة الجمهورية . ويبدو ان احداً لم يتصل بسيادته بخصوص هذه الاستقالة وبالرغم من ذلك فانه سحبها في اليوم التالي كما علمنا !!

وكان سيادته هو العضو الوحيد في اللجنة التنفيذية العليا الذي اعترض على ترشيح السيد انور السادات للرئاسة وذكر انه متأكد ان سيادته ربما لا يحصل على الاصوات الكافية للترشيح وهنا تصبح الثورة نفسها وقد سحب الشعب الثقة منها الا ان السيد

انور السادات تقبل هذا الإعتراض بروح ديموقراطية سمحـــة .

وفي الوقت الذي كانت تقدم فيه تلك الاستقالات كان العمل الجاد لاكمال الترشيح لمنصب رئاســـة الجمهورية يتم على قدم وساق فاستقر الـــراي على الاتي :

● يعرض الترشيح على اللجنة التنفيذية العليــا يوم السبت ٣ اكتوبر ــ تشرين اول ١٩٧٠ .

● يعرض الترشيح على اللجنة المركزية يـــوم الاثنين ٥ اكتوبر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

● دعوة مجلس الامة لاجتماع غير عادي صباح يوم الاربعاء ٧ اكتوبر ــ تشرين اول ١٩٧٠ .

● يتم الاستفتاء يوم الخميس ١٥ اكتوبـــر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

● اذا جاءت نتيجة الاستفتاء بنعم يجتمع مجلس الامة يوم السبت ١٧ اكتوبر ــ تشرين أول ١٩٧٠ .

ليؤدي رئيس الجمهورية امام المجلس اليمـــين الدستورية وفقا لنص المادة ١٠٤ من الدستور وانصرف كل فيما يخصه لبذل كافة جهده حتى يتم نقل السلطـة بالطريقة الدستورية في صورة رائعة وقد تمت كل هذه الخطوات في دقة اذهلت العالم وكانت محل تعليقـــات من كافة الجهات الرسمية والصحافة واجهزة الاعـــلام

العالمية وقد التزم الجميع بالدستور القائم التزامنا لا شك فيه ولذا فان أي محاولات وتقولات تذكر هنا وهناك عن التشكيك من قيمة الجهد الذي بذل في ذلك الوقت او في النوايا منها تشويه ضار للصورة الجميلة الرائعة الصادقة التي تمت بها الامور في ذلك الوقت .

والى جانب هذه الاستقالات حدثت بعض المحاولات لتآلف الجهود والوحدة الوطنية في تلك الظروف الصعبة التي تمر بها البلاد . ولقد قيل الكثير في نوايا القائمين بها وقيل أكثر في الاسباب التي تختفي وراء الظواهر . ولا شأن لي بالنوايا فعلمها عند الله . وما أحاوله هو مجرد تدوين ما حدث بصدق وامانة .

ففي احد الاجتماعات التي تمت مع جعفر النميري في فندق هيلتون وقبل ان تشيع الجنازة تحدث الرجل عن أحدى هذه المحاولات . كان موجودا معه الاخ فاروق ابو عيسى وزير الدولة لشؤون مجلس الوزراء في الخرطوم وكان موجودا من الجانب المصري شعراوي جمعة وسامي شرف وامين هويدي .

وقد تحدث الرجل بأن أمين شاكر ــ وزير السياحة السابق ــ اتصل بوزير المواصلات السودان محمود حسيب واخبره أن بعض اعضاء مجلس الثورة القدامي يريدون مقابلة الرئيس النميري ليكون واسطة خير مع السيد انور السادات حتى يتم تآلف الجميع في

تلك الفترة العصيبة . وتساءل النميري عن مدى ترحيب السادات بهذه الخطوة .. وهنا تدخل فاروق ابو عيسى ذاكرا انه يرى الا يتدخل الرئيس النميرى في مثل هـذه الموضوعات وقد آتفق معه على ذلك وهم يخبرونا بالمحاولة لمجرد العلم .

وفي فجر هذا اليوم كنا مع السيد انور السادات في قصر القبة حيث كان يمضي ليلته وقص سامي شرف ما سمعه على سيادته وفوجئنا بان سامي يقترح آعتقال « امين شاكر » الا أن سيادته رد في الحال « لا اعتقال انا لا آريد ان نبدأ اجراءاتنا بعد وفاة عبـد الناصر باعتقالات » اما عن المحاولة نفسها فقد رفضها سيادته واخذ يتحدث بمرارة عن الصراعات التي كانت موجودة في مجلس الثورة القديم ... ثم تركنا كل هذا واكملنا حديثنا بخصوص نقل السلطة واعمال الدستـور وتحديد تواريخ الخطوات اللازمة لذلك .

وفي اليوم التالي مباشرة ارسل اعضاء مجلس الثورة القدامى الى السيد انـور السادات مذكـرة مكتوبة يعرضون فيها اعادة تكوين مجلس الثورة على اساس ديموقراطي ويتولى سيادته الرئاسة وقـد وقع على المذكرة على ما اذكر كل من السادة عبـد اللطيف بغدادي ، زكريا محي الدين ، حسن ابراهيم، كمال حسين ورفض السيد انور السادات مقابلتهـم

كطلبهم في المذكرة وذكر انه سيكتفي بمقابلة بغدادي لانه يرتاح اليه دون الاخرين وقد تمت المقابلـــة ولا ادري شيئا عما تم فيها .

واصدر الدكتور عزيز صدقي بيانا الى العمـــال قال فيه : « لقد ناضل جمال عبد الناصر طوال حياتـــه في سبيل تدعيم الاشتراكية في بلدنا ليحقق لكل مواطن الكفاية والعدل وعندما كان يطبق هذه المباديء فانمـــا كان في ذلك منفذا لارادة هذا الشعب ومعبراً عن اماله واحلامه . ولقد سار خلف جمال عبد الناصر اعوان له ساهم كل منهم بنصيبه فيما رأى جمال عبد الناصر أنه قادر عليه وهناك من تخلف بعد جزء من الطريق وهناك من اكمل الشوط حتى نهايته وكان الشرط الذي لا يرضى الرئيس الراحل عنه بديلا لمن يبقيه معه في مسيرتـــه ايمانه بالمباديء التي نادى بها الشعب .. ايمانـــه بالاشتراكية . في وقت الشدائد يجب أن نتصـــارح بالحقيقة فهي التي تقينا من الوقوع في أوهام باطلة . لن يقود المسيرة ــ مسيرة الاشتراكية الا الذين يؤمنون بمبادئه الاشتراكية .... واني اطمئنكم اننا لن نسمح لمن ارتد او تخلف او ظن أن الاشتراكية تنتهي بمـــوت عبد الناصر أن يرفع رأسه او ان يكون له مكان فـــي مسيرتنا . ان عبد الناصر في اثناء حياته اصدر حكمه وعبر عن رأيه في كل من عملوا معه . لم يبق معه الـــى

نهاية الشوط الا الذين أمن لهم واطمأن الى انهم يعتنقون المباديء الاساسية التي عمل من اجلها وانهم سيكونون قادرين على الحفاظ عليها . »

وواضح ان عزيز صدقي في بيانه هذا يغمز ويلمز اعضاء الثورة القدامى الذين تركوا السلطة او تركتهم السلطة ايام عبد الناصر . وقد اثار هذا الامر عبد اللطيف بغدادي فكتب كتابا شديدا وجهه الى عزيز صدقي وارسله مع سائق الى منزله يسبه فيه ويوجه اليه الاتهامات الثقيلة التي وصلت الى حد السب والقذف اذ تحدث الرجل عن الكذب والانتهازية والرجولة ... بلهجة قاسية وصمم عزيز على الرد الا ان بعض النصائح المخلصة اقنعته بالتمسك بالصمت . وقد امتنع .

ووسط الاستقالات العديدة وسحبها والرجوع عنها ، والبيانات الحماسية والخطابات التي ترد عليها، والمذاكرات الكتابية وتجاهلها .. لم تعدم البلاد بعض من اخذوا يعملون بصمت وبالتزام وبصدق حتى تسير الامور في مجراها الدستوري . ولا يقلل من ذلك الجهد الذي بذل في تلك الفترة ما قيل عنهم بعد ذلك وهم في السجون اثناء محاكمتهم بتهمة غليظة هي « الخيانة العظمى » او « الاشتراك فيها » .

وبعد الوفاة مباشرة اقيم سرادق كبير في ساحة

عابدين في نفس المكان الذي كان يلقي فيه « الريس » خطاباته العديدة لتقبل العزاء . ووسط قراءة آيات القرآن الكريم كانت وفود الشعب تتوافد واختلط المعزون بمن يتقبلون العزاء وتوافدت النساء مع الرجال متخطين عادة وعرفا وتقليداً يقضي بالا تذهب النساء الى سرادقات العزاء . وكانت النساء حتى الفقيرات منهن يولولن ويصحن ويصرخن عن « الاسد » الذي تركهن وعن « السبع » الذي غادرهن الى غير رجعة . وكان الشبان يبكون في حزن والشيوخ تسيل دموعهم على الاذقان وهم يترحمون ويطلبون من الله ان يعينهم على بلواهم .

وفي الليلة السابقة على تشييع الجنازة آتفق بعض الاصدقاء على ان نمضي الليلة في مبنى هيئة قناة السويس بجاردن سيتي على النيل حتى نتفادى امواج البشر التي كانت قد ملأت الشوارع فقد خرجت الملايين لتشيع زعيمها في موكب وزحام لم يتكرر من قبل ولا اظنه سيتكرر من بعد .

وسهرنا الليلة بطولها فلم يكن آحد راغبا في النوم .

وكان الشعور ما زال يسيطر على البعض من ان « الريس » كان ما زال معنا لمجرد ان « جثته » لم تدفن بعد ... لم يكن هناك احساس حقيقي بحدوث

الموت عند الكثيرين ولم يكن هناك أدراك بمدى الفراغ الهائل الذي سوف يحدث .. كان عبد الناصر ما زال موجودا في « قصر القبة » وكان الكل يعملون حسابا لذلك حتى وهو جثة هامدة لا تقوى على شيء.. كان ما زال يشبد « الاسراع » قبل أن تقطع وترتخي

كنا نتحدث عما سنفعله في اليوم التالي وكأنه احد الواجبات التي كان يكلفنا بأدائها في حياته وكانت العاطفة هي التي تتحكم في العقل وتسيطر عليه . لم يفكر أحد فيما بعد وفاة عبد الناصر الا تفكيراً عاطفيا سطحيا اقرب الى ابناء فقدوا الاب الذي كان يرعاهم.

وكان هذا تقصير ما بعده تقصير .

بل كان مجرد محاولة الانتقال الى التفكير العقلاني يثير ثائرة بعض الموجودين فحينما كنا نتحدث مثلا عن عائلة الرئيس بعد رحيله فكرنا أن نتقدم باقتراح بتخصيص منزله الذي عاش فيه لزوجته طوال حياتها لان الرجل نسي في غمرة مسؤولياته ان يترك لعائلته منزلا ينتقلون اليه بعد الوفاة وتخصيص معاش لها هو نفس مرتب « الريس » الذي كان يتقاضاه لانه نسي وسط مشاغله أن يترك لعائلته مصدر رزق اخر !! هنا اقترح البعض وسط الانفعال السائد ان يطلق على الرئيس الراحل لقب الزعيم وعلى زوجته حرم الزعيم ولما اعترض البعض على ذلك لما يترتب عنه

من حساسيات يجب تجنبها ترك هؤلاء المبنى بمن فيه غاضبين من هؤلاء الذين خانوا الزعيم الذي لم يدفن بعد ...!!

وتحدث البعض عما يمكن أن يفعل لتخليد ذكرى الراحل العظيم .. وكانت الصحف قد بدأت تتحدث عن عشرات المشروعات لتخليد ذكراه وتكونت لجنة تحت اشراف جريدة الاهرام . وبدأ البعض يطرح بعض الاقتراحات العاطفية وحينما بذلت محاولات لنقل الجميع الى أرض الواقع ثارت المناقشات الحادة التي تبودلت فيها الاتهامات وسط الاعصاب المشدودة والنفوس الثائرة والقلوب الحائرة .

امور لا تجوز ... ولكنها حدثت .

وانطلق طوفان البشر طول الليل ينشد بصوت واحد مهيب كلمات أغنية حزينة وما لبثنا ان وجدنا انفسنا ننشد مع الناشدين والدموع تسيل بغزارة مياه النيل الذي يمر أمامنا . كانت الاغنية تقول ...

الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ... الوداع .
ثورتك ثورة كفاح عشتها طول السنين ... الوداع .
انت عايش في قلوبنا يا جمال الملايين ... الوداع
انت ثورة ، أنت جمرة نذكرك طول السنين ... الوداع .
انت نوارة بلدنا واحنا عذبنا الحنين ... الوداع .

انت ريحانة زكية لاجل كل الشقيانين ... الوداع.
الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ... الوداع .
وحتـــى الان لا يعرف أحد على وجه التحديد كيف انطلق هذا النشيد من كل هذه الالسنة ولا يعـــرف احد على وجه التحديد كيف انتشر بين ملايين البشر ولا كيف حفظوا كلماته والحانه !!
قيل انه في اليوم السابق للجنازة طافت شوارع القاهرة فرقة فنية من أبناء بور سعيد المهاجرين يرددون الشعارات ووسط هتافاتهم الحزينة ولدت هذه الاغنية. من الف كلماتها ؟ لا أحد لديه الجواب . كانت بدايتهـــا بيتا من الشعر كتبه « عبد الرحمن عرنوس » مـــدرب فرقة « شباب البحر » . كان البيت يقول « الوداع يا جمال يا حبيب الملايين ... الوداع » وانطلق افـــراد الفرقة يرددونه في نغماب حزينة وانضم اليهم ملايـــين البشر فولدت الكلمات تباعا وسط البكاء والولولة ... اما اللحن فقد وضعته الجماهير من خلال نواح النساء وعويلهـــــن .
وطبعت منه ملايين الاسطوانات والاشرطـــــــة ليسمعها كل بيت في طول البلاد وعرضها .
ومر الليل الثقيل ولم ينم احد ... كانت الامة كلها ساهرة تحضر « للموكب الجنائزي » الذي ستشارك فيه في اليوم التالي ... وامتلأت الشوارع والحدائق

والمنازل .... كانت الجمهورية كلها خرجت في العاصمة وفي الاقاليم لتودع القائد والزعيم .

وحينما خرجنا في الصباح الباكر لنعبر « كوبري قصر النيل » الى ارض الجزيرة حيث يوجد « مجلس الثورة » ظهر لنا ان كل ما خططنا له يصعب علينا تنفيذه . فلم يكن من الممكن ان نسير عشرات الخطوات التي تفصلنا عن « الجسر » ولم يكن امامنا الا أن نعبر النيل في الزوارق الى الشاطىء الاخر . وخوفا من ان يفعل اخرون مثل ما فعلناه وما ينجم عن ذلك من خسائر محتمة صدرت التعليمات الى كل الزوارق بأن تترك الشاطيء الغربي للنيل الى الشاطيء الشرقي او الى وسط النهر الخالد .

وكان النظام خارج « بناء مجلس الثورة » سائدا . وقفنا نستقبل المعزين من رؤساء الدول ومندوبيهم البعض كان يبكي ، والبعض الاخر كان حزينا في صمت، والقليل منهم كان يؤدي الواجب الرسمي . ووصل الجثمان في طائرة هليكوبتر نقلته بعد ان صلي عليه في قصر القبة . وكان النعش قد صنع بطريقة خاصة لانه كان متوقعا ان تخطفه الجماهير وقوى الهيكل الخشبي بصفائح من الحديد تلتف حوله وبأقفال يصعب فتحها ثم ثبت على عربة المدفع التي تجرها الجياد ويحرسها مئات الضباط والجنود .

وكانت الدقائق تمر وكأنها الساعات والكتل البشرية

تمكنت من التسرب رغما عن نطاقات الاسلاك الشائكة المضروبةفي كل مكان . . كان التسربقليلا في باديء الامر ثم ما لبث أن اصبح عاما وبمرور الوقت اخذت الكتل البشرية الباكية الناحبة تطغى على المكان الذي ستمر فيه « الجنازة » .

وبعد دقائق من سير الجنازة لم يعد هناك نظام او سيطرة فقد اختلط الجنود المكلفون بحفظ النظام بباقي طوائف الشعب ولم يعد في امكان احد ان يسيطر على النظام .

وكان من الصعب على الرؤساء الذين يشيعون الجنازة ان يستمروا في تأدية الواجب الثقيل حتى نهايته ولم يكن من المناسب ان تتكبد الوفود الاخرى كذلك المشقة الهائلة التي اخذت تتصاعد عند وصول الجنازة الى كوبري قصر النيل . فأشير على هؤلاء بان يعودوا مرة أخري الى السرادق وقد فعل البعض منهم ذلك واصر الكثيرون على مواصلة السير .

وحينما وصل الموكب الى قرب « الهيلتون » ضاق الطريق وزادت صعوبة السير وسقط البعض تحت الاقدام وقد ساهمت مع اخرين في عمل حلقة دائرية حول هؤلاء لنمنع كارثة محققة وحملنا بعض من سقطوا الى اسطح بعض العربات التي كانت واقفة هناك وتم نقل هؤلاء بعد ذلك بواسطة أخرين الى داخل الفندق .

وظهر خطر جديد بطريقة فجائية اذ اصر البعض على نزع « النعش » من على عربة المدفع التي تجرها الخيول وهنا استمات الجنــود الموجودون حــول « النعش » ليحولوا دون ذلك واعطى احد الضبــاط التعليمات لتعدو الخيول بعربة المدفع حتى تتفــادى الكارثة ثم نقل النعش بعد ذلك الى احدى العربــات ليصل الى جامع « عبد الناصر » في كوبري القبة حيث سيتم الدفن .

وتركنا موكب الجنازة بصعوبة واخذنا بعــض العربات من الطرق الجانبية ولحقنا « بالنعش » فــي الجامع وحضرنا الصلاة على الجثمان .

وكانت هناك جماعة الدفن جاهزة خارج المسجــد لمواراة الجثمان الطاهر في مثواه الاخير وكان يشــرف على الجماعة التي ستسد المقبرة المهندس علي السيد رئيس احدى شركات المقاولات في ذلك الوقت ووزيــر الاسكان بعد حركة ١٥ مايو ـــ ايار ١٩٧١ .

ورايت الجثمان محمولا الى داخل المقبرة ووضع بجوار الحائط الغربي . ورايت عبد الناصر الذي ظــل واقفا طوال حياته يناضل ويكافح وقد استراح اخيرا في مثواه الاخير . اصبح العملاق شانه شان اي فرد مجرد جثمان وضع الى جوار حائط ولا حول ولا قــوة الا بالله ، ولا عظمة الا لله ، ولا بقاء الا لله .

واندفع بعض الضباط ومعهم محمد أحمد وبعض اولاد « الريس » ليودعوه الوداع الاخير ونظروا من خلال الحائط الذي كان يبنى وتضيق فتحاته شيئا فشيئا وصفوف « الطوب او الطابوق » ترتفع شيئا فشيئا ثم انسحب الجميع الى الخارج وقد ارتفعت اصواتهم بالبكاء والعويل .

وكنت ما زلت واقفا ارآقب واتأمل وقد هانت امامي الدنيا وما فيها . هل حقيقة هذه هي الدنيا ؟! هل حقيقة ان الرجل الذي ملأ العالم اجمع بصورته وصوته وعمله قد انتهى به الامر هكذا الى جوار حائط وهو ممدد على الارض ؟!!

ووسط هذه التأملات تقدم مني احد الضباط من حرس « الريس » قميصه مفتوح وقد ضاع غطاء رأسه والدموع تسيل من عينيه وهو ينتحب وادى التحية العسكرية وهو مشدود الاعصاب وسألني « هل صحيح ان عبد الناصر مات ؟ » فقلت له «نعم » فقال « طيب » واشتد نحيبه . وبحركة عسكرية دار الى الخلف . وذهب .

وانصرفت بعده وقد جفت دموعي .

كتب « رجاء النقاش » مقالا في العدد الخاص لمجلة الهلال الذي اصدرته في نوفمبر ـ تشرين ثاني ١٩٧٠ عن جمال عبد الناصر تحت عنوان « ادباؤنا

ومواقف لا تنسى لعبد الناصر » ... جاء في المقال عن موقف عبد الناصر من توفيق الحكيم ان اسماعيل القباني الذي عين وزيرا للمعارف في بداية الثورة تقدم الى مجلس الوزراء بطلب فصل توفيق الحكيم من دار الكتب لانه لا يؤدي عمله كموظف على الوجه الاكمل ودهش عبد الناصر من اقتراح القباني واعترض عليه اشد الاعتراض واعتبر وجود « الحكيم » في دار الكتب تشريفا لها . ومرة اخرى وقف عبد الناصر موقفا رائعا من توفيق الحكيم ففي اواخر الخمسينات شن الناقد الكبير احمد رشدي صالح حملة عنيفة ضد توفيق الحكيم محورها ان كثيرا من اعمال الحكيم المسرحية والروائية مقتبس من اصول اجنبية وكان يعني بذلك — على حد قول النقاش — ان توفيق الحكيم لم يكن اديبا ولا فنانا بل مترجما ولصا اديبا وتأثر الحكيم أيما تأثر بهذه الحملة الظالمة وخلال هذه الحملة اتخذ الرئيس جمال عبد الناصر قراراً رائعا حيث منح توفيق الحكيم أعلى وسام في الدولة .

ويقول رجاء النقاش عن موقف لعبد الناصر من يوسف ادريس حينما رفض جائزة قدرها الفي جنيه خصصتها مجلة « حوار » التي كانت تصدر في بيروت عن « ملظمة حرية الثقافة العالمية » له كأحسن اديب في العام وقد رفض « ادريس » الجائزة لانه علم وتأكد

ان المجلة خاضعة للتوجيه الإمريكي وحينمـــا علـــم عبد الناصر بموقف « يوسف ادريس » امر بصرف قيمة الجائزة كاملة له كما منحه وساب الاداب والفنون .

ثم تحدث رجاء النقاش عن موقف عبد الناصر من نزار قباني بعد ٥ يونيو ١٩٦٧ حينما كتب قصيدتـــه المشهورة « هوامش على دفتر النكسة » فهاجمته بعض الصحف المصرية وطالبت بمنع دخوله الى الجمهوريـــة العربية المتحدة كما طالبت بمنع أذاعة اغانيه وهنـــا ارسل « نزار » قصيدته بخطاب الى عبد الناصر الذي قرا القصيدة والرسالة وكتب بخط يده على رســالـــة نزار بالسماح للقصيدة بالدخول الى مصر وايقاف اي اجراء ضد الشاعر وشعره .

ولذلك لم يكن غريبا ان يكتب نزار قباني بعــــد موت عبد الناصر قصيدته المشهودرة :

قتلناك يا جبل الكبرياء
وآخر قنديل زيت
يضيء لنا في ليالي الشتاء
وآخر سيف من القادسية
قتلناك نحن بكلتا يدينا
وقلنـــا المنيـــة
لماذا قبلت المجيء الينا ؟
فمثلك كان كثيرا علينا .

وكتب الدكتور عبد العزيز كامل في نفس العدد من مجلة الهلال تحت عنوان « الاسلام عند جمال عبد الناصر » ليقول « هذا الايثار والحب كان المحور الرئيسي في حياة الرئيس ، آثر وطنه الكبير .. اثر العطاء على الاخذ .. والتعب على الراحة .. والنضال على المهادنة .. وحل قضايا الحياة اليومية للملايين .. سعادته من أن تشيع السعادة وراحته في ان يستريح الناس » . ثم يواصل حديثه بوصية اوصاه بها عبد الناصر في احدى مقابلاته له اذ قال عبد الناصر : « من اليسير ان نكتب ومن العسير أن تطبق ذلك على الناس فانك قد تجد السوء ممن تنتظر منه التعاون والخير فلا تجعل ذلك يصرفك عن هدفك » ثم يقول « لقد كان عبد الناصر يعيش الاسلام في نفسه . في زهده وتواضعه ، في اعادة الدين الى بساطته والى تطبيقه في حياته اليومية على نفسه وعلى الناس . كان متخففا في طعامه ، طاهرا في بيته وشرابه واهله .. كان الاسلام عنده اسعاد الناس . »

ثم كتب الشيخ احمد حسن الباقوري في نفس العدد « ان في عبد الناصر جوانب كثيرة كبيرة موصولة بعقل ذكي ونظر بعيد فهو اهل لكل صفة كريمة تسبغ عليه ولكل كلمة خير تقال فيه فالذين يرونه

شجاعا ومصلحا لا يعدمون لكل صفة من هذه الصفات اصولا تستند اليها وشواهد تدل عليها » .

وكتبت السيدة سهير القلماوي تحت عنوان « الثورة الناصرية في الثقافة » في نفس العدد « ولعل اهم ما قدمته الثورة الناصرية للشعب في ميدان الثقافة والفن هي الكرامة ... كرامة الفنان فقلدته ارفع الاوسمة واسمى الجوائز وكرمته في كل ميدان وبكل وسيلة . اما المناخ الذي تتنفس فيه الفنون ومن اخطرها الكلمة فقد هبت عليه ريح اقتلعت كل المقاييس القديمة واذا الكلمة تعبير حر لا يلقى في سبيلها الكاتب عنتا ولا اضطهادا . كم ذا ملئت السجون بأصحاب الكلمة الشريفة !! كم ذا هدد الكتاب والشعراء في ارزاقهم في عهد الملكية !! اما الكلمة في الثورة الناصرية فهي التعبير الحر عن الفكر الملتزم بقضية الشعب . ولم تقف الثورة ضد اي فكر الا الفكر المقوض لمكاسبها او المخرب لخطواتها المنتصرة في سبيل كرامة الكلمة المعبرة عن الشعب . يمكن أن يوقف القلم اذا رؤى ضرره ولكن صاحبه لا يضار بسبب الكلمة . والكلمة الشريفة مهما تكن الزاوية التي ترى منها صالح الشعب فان لها المجال لان تعبر ولان تبنى قضايا الشعب باي وسيلة تراها » .

وقال « صالح جودت » في قصيدة بعنوان « بعد الوداع » :

هوى الذي كان ارتفاع السها
وانهار من كان كشم القلاع
اراده الله ... وما جهدنا
ازاءها الا رضا وانصياع
اراده اللـه قضت امرها
فينا فقلنا يا جمال الوداع
جمال قد أرسى لكم نهجه
ونهجه اولى بكل اتباع
يا زورق الاحلام قم وانطلق
وانشر على مد الحياة الشراع
وسر على درب جمال ولا
تهن وضاعف من خطاك السراع
مسيرة الثورة لا تنتهي
أما نعى الملاح في الغيب ناع
فكلنا ملاحها .... كلنا من
غرس هذا العبقري الشجاع

وكتب « أحمد زين » يوم ٢٩ — ٩ — ١٩٧٠ في الاخبار يقول : « لقد أعطى عبد الناصر الارض للفلاح وللعامل المصنع ، وللجيل الجديد العلم والنور مجانا . ولاول مرة تساوت الفرص وقلت الفوارق وأحس كل فرد بالحرية الحقيقية ... ماذا يستطيع القلم ان يكتب ؟ ان المجلدات الضخمة تعجز عن التعبير فما بالك بالكلمات ؟! ... هل تستطيع ان تتحدث عن

البسمات التي ادخلها على القلوب البائسة ؟ هل يمكنها ان تتحدث عن الامال التي وضعها في القلوب البائسة ؟ هل يمكنها أن تصنف فرص العيش التي توفرت والحياة التي تحققت ؟ » .

وكتب « انيس منصور » في نفس العدد من الاخبار « أما ذلك اليوم الاسود يوم تنحى عبد الناصر عن الحكم فكان انفس أيام الامة العربية فقد أحسسنا جميعا بأننا يتامى . أما اليوم فان عبد الناصر لم يتنح عنا بل وضعنا امام ارادة الله . فلا شيء يعوضنا عن خسارته المروعة » . ثم عاد ليكتب يوم ١ـ١٠ـ١٩٧٠ « اننا في عصر ما بعد عبد الناصر نتكلم أكثر ونصرخ أكثر وهو لا يتكلم . ونخاف أكثر فقد كان هو الامان وصمام الامان . فاللهم ارحم عبد الناصر وارحمنا من بعده ..... ومن أنفسنا » .

وكتب « عبد الرحمن الشرقاوي » في نفس العدد « فالرجل الذي تلخصت فيه أحلام أمة بأسرها ... الانسان الذي شكلت نبضات ملايين القلوب خطاه ... الزعيم الذي ارتبط اسم الوطن باسمه كما لم يرتبط اسم وطن بزعيم من قبل .... المعلم الذي عمر الوجدان بالثقافة والقيم الفاضلة ... الاب الذي ملأ القلوب الخائفة بالامن ... الرائد الذي فجر من الجوانح عزة الكبرياء ... رجل الدولة الذي فرض على عالمنا هيبة العرب ... الاب الذي شمر ابناء

الوطن في ظلاله بالطمأنينة والثقة في المستقبل ... الاخ الذي جعل حياته كلها اثارا نبيلة من نضال جبار لا يهدأ حتى ينتصر الحق ويسود العدل .. » .

وكتب سيد مرعي في اهرام ٤ـ١٠ـ١٩٧٠ يقول تحت عنوان « كلمة وفاء » « الى روحك الطاهرة يا من حررت ملايين الفلاحين المصريين ، يا من أدركتهم بعد شقاء الاف السنين فجئتهم في موعدك وكسرت عن ايديهم الاغلال والقيود وأطلقت طاقاتهم فساروا وراءك على اشرف طريق ... لا زالت ماثلة أمامي صورتك بين الفلاحين في منطقة دميرة توزع عليهم وثيقة تحررهم وتملكهم الارض التي عاشوا عليها عبيد لها فأصبحوا بفضلك اسيادها .. ثم في منطقة الزعفران وانت تواصل نفس الرسالة وكانت البلاد تحتفل بالعيد الاول لثورتها التي قامت بقيادتك . انك لم تتخلف عن رد حقوق الفلاحين اليهم فبعد ستة اسابيع من قيام ثورتك أعلنت قانون الاصلاح الزراعي وفي عيدها الاول قمت بتوزيع الارض على الفلاحين ... وسيظل دائما عبد الناصر هو اسلوبنا في الفكر وهو مصدر الامل ومفجر طاقات العمل » .

وكتب نجيب محفوظ في اهرام ٢ ــ ١٠ ــ ١٩٧٠ حوارا تحت عنوان « كلمات من السماء » ...

ــ حياك الله يا اكرم ذاهب

ـ حياكم الله وهداكم
ـ اني احنى راسي حبا واجلالا
ـ تحية متقبلة ولكن لا ننسى ما سبق من قولي « ارفع صوتك يا أخي »
ـ نحن من الحزن في ذهول شامل
ـ لا يحق الذهول لمن تحدق به الاخطار وتنتظره عظائم الامور
ـ يعزينا بعض الشيء انك الى جنة الخلد تمضي
ـ وسيسعدني اكثر أن تجعلوا من دنياكم جنة
ـ ان عشرات التماثيل لن تجعلك في خلود الذكرى
ـ لا تنسوا تمثالين اقمتهما بيدي وهما « الميثاق » و « بيان ٣٠ مارس »
ـ وراءك فراغ لن يملأه فرد
ـ ولكن يملأه الشعب الذي حررته
ـ سيبقى ذووك في صميم الافئدة
ـ ابنائي هم الفلاحون والعمال والفقراء .

ونشر الاهرام في ٢ ـ ٢٠ ـ ١٩٧٠ ان مجلس ادارة الاهرام قرر أن يتعهد الفكرة التي دعا اليها توفيق الحكيم باقامة تمثال لعبد الناصر وقد نشر توفيق الحكيم بيانا قال فيه « لقد جسد الشعب فيك صورة حريته لقد جعل منك تمثال الحرية لنا فاسمح لنا

وقد فارقتنا ان نقيم لك تمثالا عاليا في ميدان التحرير ليشرق على الاجيال ويكون دائما رمزا للامال وما ينبغي أن تقيم هذا التمثال سلطة او دولة . لكنه الشعب نفسه من ماله القليل يقيمه » ، وكانت السيدة أم كلثوم قد اقترحت ان يطلق على « السد العالي » اسم « سد ناصر » كما كان يطلق على بحيرة ناصر تخليدا لذكرى الرجل الذي بنى السد وصنع البحيرة .

ونشرت « رويتر » تعليقا لمناحم بيغن زعيم كتلة جحل في اسرائيل قال فيه « ان الرئيس عبد الناصر كان أخطر أعداء اسرائيل . ان وفاة عبد الناصر تعني وفاة عدو مر . انه كان اخطر عدو لاسرائيل ولهذا السبب لا تستطيع اسرائيل ان تشارك في حديث النفاق الذي يملأ العالم كله عن ناصر وقدرته وحكمته وزعامته . » !! ولعل بيغن كان من القليلين الذين صدقوا مع أنفسهم فلم يغير لون جلده بمرور الوقت كما تفعل الحرباء .

وبعد هذا الذي قرات لم يعد في استطاعتي أن اقرأ اكثر ولا أن أكتب اكثر !!

وتوقفت عن القراءة والكتابة وجمعت ما امامي من اوراق واعدتها الى المكان الذي كانت فيه .

واخذت اقارن بين هذا الذي قيل بالامس ، وما يقال اليوم ... وهالني ما وجدت !!!

وذرفت بعض الدموع ... بعضها على جمال

... وأكثرها على وفاء الرجال !!!

وشعرت في نفس الوقت بالقلق عما ستكتبه الاقلام المارقة الان وفي كل أوان عن الحكام واصحاب الصولجان لو تغير اتجاه الريح في يوم من الايام . او اذا وافاهم الاجل بعد عمر طويل ... فالموت حق على الجميع ، بل هو الحقيقة الوحيدة في هذه الحياة !!!

وفي الوقت نفسه نظرت الى صفحات التاريخ التي نتداولها بين وقت واخر بين الشك والارتياب ... فربما تكون اقلام الامس التي كتبت ودونت شبيهة بأقلام اليوم التي تغيرت وتبدلت !!!

واقول ربما .. لانني لم اصل بعد الى حد اليقين !!!

القاهرة ـــ مصر الجديدة .

امين هويدي

الفهـرست

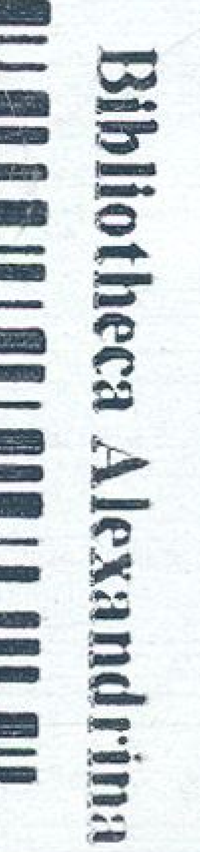
هذا الكتاب

- ما هي مفاتيح شخصية عبد الناصر .
- لماذا تولى رئاسة الوزراء مرتين ؟
- كيف كان يتعامل مع وزرائه ، وكيف كان يتخذ القرار ؟
- كيف استطاع ان يكسر طوق الظروف التي كانت تضغط عليه كرجل دولة وتتحدى طبيعته كرجل ثورة ؟
- كيف استطاع ان يوفق بين متطلبات الاعداد لحرب التحرير وضرورات التنمية والحاجات اليومية للجماهير ؟
- ما هي الاسس التي بنى عليها استراتيجيته لازالة آثار نكسة ١٩٦٧ ، وهل اعد لحرب تحرير ام حرب تحريك ؟
- ما هو وجه الحقيقة فيما دار خلال الايام التي اعقبت رحيل القائد العظيم ؟

كل هذه الاسئلة وغيرها يجيب عليها مؤلف الكتاب الذي كان شديد القرب من عبد الناصر ، وثيق الصلة بعملي[illegible] القرار ، خاصة في الفترة الواق[illegible] وقوع النكسة وانتقال الزعيم ا[illegible] ربه . فقد تولى خلال تلك الفتر[illegible] وزارة الحربية ورئاسة المخ[illegible] العامة .

وهذا ثاني كتاب تصدره دار [illegible] للمؤلف بعد ان اصدرت لـ[illegible] « احاديث في الأمن العربي » .

النا[illegible]



دار الوحدة
بناية مبشر - شارع ليون
الحمراء - بيروت

سعر النسخة ١٠ ل.ل